مهرجان القراءة للجميع

مكتبة الأسرة

خيرى شلبى

السنيورة

وقصص أخرى

الأعمال الإبداعية



السنيورة..
وقصص أخرى

لوحة الغلاف

اسم العمل الفنى : السنيورة
التقنية : ألوان باستيل على ورق ملون
المقاس: ٢٥ × ٣٥ سم

جمال كامل (١٩٢٦ - ١٩٨٦)

فنان مصرى، مارس الرسم منذ سن الخامسة، وبعد حصوله على الثانوية رحل من أسيوط إلى القاهرة، وتخرج فى كلية الفنون الجميلة (قسم التصوير)، واتبع الأسلوب التأثيرى، فتعلم على صبرى راغب، وبرع فى الأداء واختيار الألوان، إنه أشبه بالنحات، يصور بخط واحد، ثم يبدأ من نقطة ما، ويبنى حولها، يضع بقعة على يمينها، وبقعة تحتها، ويظل يواصل ضربات الفرشاة، ليبنى ويبنى، لتصير اللوحة فى النهاية جسم ملموس؛ يبهر العين بألوانه ونسبه، حتى يخال للمشاهد أن الصورة حقيقة، هذه الخاصية العجيبة التى انفرد بها جمال كامل، وأصر عليها فى أغلب أعماله الصحفية.

محمود الهندى

السـنيورة..

وقصص أخرى

خيري شلبي



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠١

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(الأعمال الإبداعية)

السنيورة .. وقصص أخرى

خيرى شلبى

الغلاف
والإشراف الفنى:
الفنان : محمود الهندى
المشرف العام :
د. سمير سرحان

الجهات المشاركة :

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التربية والتعليم
وزارة الإدارة المحلية
وزارة الشباب
التنفيذ : هيئة الكتاب

على سبيل التقديم :

كان الكتاب وسيظل حلم كل راغب فى المعرفة واقتناؤه غاية كل متشوق للثقافة مدرك لأهميتها فى تشكيل الوجدان والروح والفكر، هكذا كان حلم صاحبة فكرة القراءة للجميع ووليدها «مكتبة الأسرة» السيدة سوزان مبارك التى لم تبخل بوقت أو جهد فى سبيل إثراء الحياة الثقافية والاجتماعية لمواطنيها.. جاهدت وقادت حملة تنوير جديدة واستطاعت أن توفر لشباب مصر كتاباً جاداً وبسعر فى متناول الجميع ليشبع نهمه للمعرفة دون عناء مادى وعلى مدى السنوات السبع الماضية نجحت مكتبة الأسرة أن تتربع فى صدارة البيت المصرى بثراء إصداراتها المعرفية المتنوعة فى مختلف فروع المعرفة الإنسانية.. وهناك الآن أكثر من ٢٠٠٠ عنواناً وما يربو على الأربعين مليون نسخة كتاب بين أيادى أفراد الأسرة المصرية أطفالاً وشباباً وشيوخاً تتوجها موسوعة «مصر القديمة» للعالم الأثرى الكبير سليم حسن (١٨ جزء). وتنضم إليها هذا العام موسوعة «قصة الحضارة» فى (٢٠ جزء).. مع السلاسل المعتادة لمكتبة الأسرة لترفع وتوسع من موقع الكتاب فى البيت المصرى تنهل منه الأسرة المصرية زاداً ثقافياً باقياً على مر الزمن وسلاحاً فى عصر المعلومات.

د. سمير سرحان


بسم الله الرحمن الرحيم

السنيورة

اهــــــداء

الى ولدى الحبيب « زين العابدين » ٠٠

كان صراخك فى المهد يكاد يمنعنى من اتمام هذه القصـــة ٠

خـيرى

الفصل الأول

الولد « مختار » يحكى

لرفاقــه فى الكتاب ·

عن يوم مرواحه الترحيلة

·· وعاد أبى من الجامع · جلس بجانبنا حول الطبلية وأخذ يحرك شفتيه ويبسبس ويكشر وجهــه لسبب لا ندريه والمسبحة تتدلى من يده ، طويلة تمتد بجانبه وتختفى بين ثيابه · أنا وأخوتى وأمى ننتظره من صفار الشمس لكى نتعشى · فنحن لا نأكل اللحم الا فى هذه الليلة المفترجة ··· ليلة الموسم ·· طوى المسبحة فجأة وكورها ودسها فى جيبه ، وزغدنى بكوعه لأبتعد قليلا ، وزغد أخى طلبة ليوسع ثم انزاح نحو الطبلية ثم أخذ يبرطم ، وأخذنا ننظر الى بعضنا فى خوف · نظر أخى الصغير الى أبى وبكى ولما سأله أبى قال اننى أخذت الملعقة الكبيرة فنظر أبى الى بغيظ وهنا صاحت أختى « وسيلة » قائلة ان الملاعق الخشب أحسن من هذه الملعقة فبكيت ، وقال أبى انها لا تفهم فهذه الملعقة هى الدليل القاطع على أننا من أسرة طيبة ، حيث أن جدى ورثها من جده الكبير ·· فراح أخوتى يبحلقون فى هذه الملعقة كأنهم يرونها لأول مرة ، ورحت أنا أنظر الى يدها الكبيرة المزوقة وفتحتها الكبيرة التى تصيب قدرا من المرق ·· أما أبى فقد شوح بيده وقال لأمى :

ــ أنا يا وليه قلت لك ألف مرة شيلى الملعقة فى الصندوق والا ضاعت ·

وقلت لأبى وانا فرحان أننى جمعت الملاعق من تحت السلم ومن القاعة الجوانية · وقال أخى طلبة « وهو يشوح بملعقته الخشبية فى وجه أبى ·· أنا قمت بتكسير العيش فى الأنجر » ·· وهنا ضحك أبى · أمى بدأت الغرف · راح جسدها يهتز وهى تغرق العيش بالمرق ، وتضغط عليه بظهر الملعقة · ثم انها قلبت فوقه براما كاملا من الأرز ثم رفعت الحلة بين يديها وأفرغت المرق فى السلطانية · رحت أنا وأخوتى نتابع المرق وهو يسيل ويكشف عن قطع اللحم فى قاع الحلة الكبيرة وقد أخذ الدخان الحلو يتصاعد منها · فجأة أخذ أبى يلم جلبابه ويتبرأ من لمسنا حتى لا نوسخ الجلباب أو ننجسه · وانزاح اخوتى كلهم ، أما أنا فلم أفعل لأن أبى يفعل ذلك كلما لبس الجلباب نظيفا كما وأنه يجلس الآن فوق خراء البط أو الفراخ ، شمر ذراعه الطويلة وراح يشرب المرق بسرعة · أما نحن فأخذنا نقلب الفته وننفخ فيها لتبرد ــ وبدأت أمى فى تفريق الأنصبة ·· وقال أبى بصوت عال ان من يأكل ما نابه بسرعة قبل أن ينتهى أخوته فليس له شىء آخر ، ومن يطمع فى نصيب أحد اخوته أو لا يعجبه التفريق أو حتى يلوى بوزه فسيبيت الليلة فى نكد وربما يبيتها خارج الدار لكننا أخذنا نأكل ولا أحد يرفع رأسه · وقالت أمى :

ــ اسمعوا ؟ ··

توقفت الملاعق فى الهواء · جاء صوت الشيخ فرحات الأعمى ــ المنادى ــ بصوته المشروخ الذى يقول أبى أنه انشرخ من كثرة ما نادى على كل شىء · اقترب صوته :

ـ يا انفار يا شغيلة ·· بشرى لكم فى ذى الليلة المفترجة ·· فيه شغل بكرة فى الوسية ـ اليومية ستة ساغ ـ القبض والاتفاق مع المقاول الشيخ على منصور ·· ياللا يا أنفار شدوا حيلكم واتوكلوا على الواحد الرزاق ·

وابتعد صوته واختفى فى الحارة المجاورة · لا أدرى لماذا هدأت سرعة الملاعق · لا أدرى أيضا لماذا بدأ أبى وأمى وأختى وسيلة يظهر عليهم الشبع · وقال أبى :

ـ هيه ·· ستة قروش فى اليوم ·

وقالت أمى :

ـ يلزمنا خمس كيلات من القمح وثلاث من الذره ·

وقال أبى :

ـ أهم حاجة اليوم هى عرق الخشب ·

ـ عرق الخشب ؟

هكذا صحنا جميعا ·· فقال مشيرا الى السقف :

ـ نصلب عليه سقف القاعة قبل حلول الشتاء ·

وردت أمى وهى تمسح شفتيها بكمها وتتراجع بعيدا عن الطبلية :

ـ متى تذهب الى الحكيم ؟

شوح بذراعه وابتعد عن الطبلية :

ـ لا حكيم ولا زفت ·

ـ يا راجل ·· انك تتبول دما ·· وتكح حتى تقطع النفس·

مسح يديه فى حرف الطبلية · وأخرج علبته الصفيح وراح يلف سيجارة · وكان ينظر الى من تحت لتحت نظـرات طويلة حيرتنى · وحينما أتوقف عن الأكل ناظرا اليه يحول نظرته الى أختى وسيلة ، والى أمى ، ثم ينفخ الدخان ·

***

طلب أبى عدة الشاى والمنقد ، وأرسل أخى طلبة الى دكان النجار ليشترى له شايا وسكرا على الحساب ، بقرش تعريفة ، ونصف ربع أوقية دخان ·· وقال :سوف يعطيك فلابد انه سمع الشيخ فرحات ينـادى على الشغل فى الوسيـه · وذهبت أختى وسيلة الى محمد بتـــاع الغوايش تنتقى لها منـديلا من الحبر ــ وغمزتنى أمى ببيضة أشترى بها حلاوة طحينية ــ وعنـد باب الحارة وجدت عمى « درويش » فعرفت أنه فى هذه الليلة سيتركنا نلعب الكره المضرب تحت شباك المندرة ·

مثل ليلة العيد ، وليالى رمضان ، والليالى التى يختنق فيها القمر ، امتلأت الحوارى والأجران بالناس · وازدحم دكان النجار ·· وكان الرجال يلتمون حول أنفسهم ويتحدثون بصوت عـال ويضحكون ورجل يشـتم آخر ويهدده بضرب الفأس فيقول له : « الله يسامحك » ويمشى بجواره · وامرأة تخبط على باب وتسأل عن قطعة خميرة كنت أسير بجانب أبى ممسكا بذيل جلبابه ·· دخلنا حارة العصاروة ومررنا بالزاوية وصلى أبى صلاة العشاء ·· وحين خرجنا وبدأنا نسير فى حارة الجرانه انضـم الينـا رجال كثيرون ، وراح أبى يلت ويعجن بكلام فارغ لا أفهمه ·

***

انهالت عصا الخفراء فوقنا ، ولم تكف عن ضربنا حتى فعلنا ما يأمروننا به وجلسنا متقرفصين · وجاء « متولى العبد » ـ وهو من صبيان الشيخ على ـ ممسكا بالدفتر والقلم الكوبيا نهض أبى واقفـــا :

ـ كام يوم يا أبو خليفة ؟

ـ الموسم كله يا متولى أفندى ·

ـ وحـــدك ؟

ـ أربع أنفـار ·

تراقص القلم الكوبيا فوق الدفتر ··

ـ خمسين صاغ تحت الحساب ·

كانت ورقة جديدة لها خرخشة مفرحة · أخذها أبى ولفها فى منديله المحلاوى وراح يعقد المنديل عقدة فوق عقدة ثم دسها فى جيب الصديرى ، وقال : « ياللا بينا يا ولد » فتعلقت بذيل جلبابه ومشينا · وسألتـه :

ـ أبى ·· من الذى سيروح معك الترحيلة ؟

ـ أنا · وأختك وسيلة · وأنت · وأخيك طلبة ·

ـ أنـا ؟

ـ ايه ·· ألست رجلا ؟

ـ لكننى أروح الكتاب ·· وأحفظ القرآن ·· وأتعلم فك الخط ·

ـ لابد أن تتعلم فك الفلوس ، وحفظها أيضا ·

فلم أجد كلاما أقوله ·

وضع يده على كتفى فى حنان كبير وهو يدفعنى لندخل حارتنا .. وعند هبوطنا عتبة الدار شدد قبضته على يدى بخوف • وحينما صرنا فى الدهليز صاح « يابت » خرجت أمى من القاعة تحمل اللمبة الفتيل • وصاح أبى وهو يدخل القاعة :

ـ الخبيز بكرة .. والسفر بعده •

على وجه أمى فرحة • ولكنها حين جلست معنا صارت حزينة ووجهها متغير • قلت لنفسى : لابد أنها حزينة من أجل أن أبى سيغيب فى الترحيلة ، انها دائما تحزن هكذا فى كل مرة يرحل فيها • كثيرا ما سألتها عنه وهو غائب ، لكنها كانت تظل طول الليل تسلينا بالغناء مع أن غناءها كان يجعلنى أبكى ، وحينئذ كانت تضمنى الى صدرها وتظل تضحك وتنظر فى عينى حتى أسلم أمرى لله وأضحك ، وأحسست أننى فرحان بالترحيلة وقلت لأبى :

ـ هل سنرى بلادا كثيرة يا أبى !

فصب الشاى فى الكوب الصاج ثم أعاده الى البراض ، ثم رفع البراض مرة أخرى وصب الشاى وكان صوت انصبابه فى الكوب أحلى صوت .. شفط أبى فارتفعت جبهته كلها ثم هبطت بينما يقول « .. ح .. ح » ، ولم يقل لى هل سنرى بلادا كثيرة أم لا • فزحفت حتى التصقت بأمى وقلت لها أننى سأروح الترحيلة وسأشترى لنفسى حذاء وشرابا • قال أبى وهو يبتسم ويدلق بقايا الشاى فى المنقد :

ـ نفرح كأنك ذاهب تعمل سائسا لبغلة التفتيش :

انتفضت أمى وضربت صدرها وشهقت :

ـ الشر بره وبعيد .. الشر بره وبعيد .. ياشيخ حرام عليك •

ثم خبأتني في صدرها · النمل الذى في الدنيا كلها يزحف تحت ملابسى · رفعت رأسى وقلت لأمى ·

ـ أمى ·· هل ·· هل بغلة التفتيش هذه مثل كل البغال ؟

قهقه أبى وقال :

ـ لا ·· هى بغلة مثل كل الناس فى بلدنا ·

ثم ضحك ثانية · وظل يضحك حتى صارت جبهته مثل حزمة من السحالى · وتضايقت أمى وطلبت أن نفض هذه السيرة ··· ومدد أبى ركبتيه وطرقعهما وقال :

ـ ياه ·· حوشى حوشى ·· أحسن خلاص حياخدوه ·· قال بخت ··

ثم وضع احدى الركبتين فى حجرها والأخرى فى حجرى ، فعرفت أننا يجب أن ندعك رجليه نضغط فى الدعك عند خنقه القدم · قرصته أمى فى قدمه وقالت :

ـ أليس حراما ؟ تريد أن يؤخذ الولد غدرا ؟

قال مثلما يصلى :

ـ هل سأعيش وأراه فى هذه الأمله ؟ ·· يوم المنى عندى يوم أراهم ينتقونه من وسط البلد كلها ·· ويأخذوه فى زفه ·

ـ يأخذونه ليتزوج ؟

ـ فعلا يا بنى ·· هو بالحق يتزوج ·· يتزوج البغله ·

ـ والبغله هل تتزوج ؟

ـ قل له يا ولدى ·· قل له ·

هكذا قالت أمى ٠ وقال أبى :

ـ من يطلع من البلد ينفتح له باب السعد ٠٠ ياسلام ٠٠ انظرى الى هذا الاسم ٠٠ سايس ٠٠ لبغلة ٠ التفتيش ٠ سبحان العاطى ٠٠

انبسط وجه أمى وظهرت عليه الفرحة ٠٠ غير أنها تنهدت بحرقة ، واحتضنتنى ٠ قالت :

ـ أمى ٠٠ أحب أن أكون سائسا لبغلة التفتيش ٠

شهقت أمى وقرصتنى فى خدى وقالت : « الحق مش عليك » آلمتنى القرصة فبكيت فربتت على ظهرى لتسكتنى ، وأحسست لحظتها أننى يجب أن أفعل أشياء كثيرة ، يطلع الصباح فلا يجدوننى ، أرحل وحدى ، أظل أمشى وأمشى حتى أصل الى الحظيرة التى تنام فيها بغلة التفتيش هذه وأرى شكلها فقط ، وأعرف : لماذا يفرح ـ الرجال بالقدوم اليها ، وتحزن النساء ؟ ٠٠ قال أبى :

لماذا تضربينه يا أمرأة ؟ ٠٠ ذراعك متبرىء منك ؟

فبكيت بصوت عال ٠ وقالت أمى :

ـ ان شاء الله يخيب أمله ٠٠ بشرت عليه بالبغلة ؟ ٠٠ ان شاء الله سيطير من يدينا ٠٠ سنفقده كما فقدت البلد كل الذين أخذوهم لهذه الملعونة ٠٠

ـ أنت عدوك أهبل ؟ ٠٠ طب ٠٠ قولى ياليت ٠٠ يكفى أن نسمع به وبحسه فى البلاد ٠٠

ـ وان جاءك زكيبة عائمة فى المصرف كما يعودون .. تنفعنا بسلامتك ؟ على أن أبى تثاءب ، وتمدد فوق الحصيرة ، وسحب المخدة تحت رأسه .. ونهضت أمى فأمسكت اللمبه وأغمضت عين الضوء وقالت :

ـ قم يامختار لنتعشى .

وأحسست كأننى أريد أن أطير فى الهواء ..

***

قالت أختى « وسيلة » بغيظ « نم يا أخى » وجذبتنى اليها ثم قالت بعد برهه :
ـ أنت ياولد .. ألا تأكل ؟ .. انك جلد على عظم .. بالله كيف تذهب الى الترحيله ؟

قلت لها اننى أستطيع أن أشتغل مثلهم ، أعرف نقاوة اللطع من شجرات القطن الخضراء : أقلب الشجرة ذات اليمين مرة ، وذات الشمال أخرى ، فان لمحت اللطعة قطفتها بورقتها ووضعتها فى الكيس المعلق فى رقبتى .. فصاحت أختى فى خوف وهى تشهق لا ياعبيط .. احذر أن تقطع الورقة كلها والا قطع الخولى رقبتك اقطع على قد اللطعة فقط ثم قالت بعد برهة وماذا تعرف غير نقاوة اللطع ؟ « قلت أعرف جمع القطن أيضا .. أمد يدى وأقطف اللوزة المتفتحة ثم أضعها فى عبى هنا ضحكت « وسيلة » ولا أعرف كيف نامت فى الحال ، وكنت أريد أن أتكلم وأتكلم حتى يطلع الصباح ولكن « وسيلة » غطت وجهها بيديها وصمتت ، فخيل الى أن الدنيا كلها ماتت .. وكان نور اللمبة نمرة خمسة يتشعلق على الجدران السوداء فخفت وجلست ، جدتى ـ أم أبى ـ تنام فوق قبة الفرن .. والفرن فى نهاية المصطبة والمصطبة كبيرة وتشغل القاعة كلها ،

بينها وبين الباب ، وأمام الفرن ، برحاية واسعة تجلس فيها النسوة أمام مرصات العجين يبططن العيش على المطارح ويملأن الدار باللت والعجن كما تقول جدتي . هي لا تحبهم ولا تحب اليوم الذى ندير فيه الفرن من أجل خاطرهن .. أما أنا فأحبهن .. ما أحلاهن وهن يأخذنني في أحضانهن ما أحلا صدورهن العريضة الملآنة وأنا أدفن رأسي فيها .

تقلبت « وسيلة » وانطرحت على ظهرها كالبهيمة الفطيس .. وتثاءبت ونفخت وخيل الى انها تنفخ من بطنها كثيرا من الحسرات التى تقول أمي دائما أن المسكينة تشربها في قاع بطنها .. جدتي هي الأخرى تقلبت فوق الفرن وقالت :

– أما نمت يا حبة عيني ؟

ردت وسيلة « أبدا يا جدة » قالت جدتي « الهي ينشك في دراعه » قلت وأنا انتفض « من يا جدة ؟ » قالت « ابن ظريفة بائعة الطماطم .. هو خولى في الوسية ويضرب أختك » . شعر رأسي يقف كالشوك .. جدتي تقول « ماذا يريدها أن تفعل له ؟ هل نسى أن جدها كان يحمل القرآن على صدره ؟ ابن الزانية يتصور ان بنات الناس كلهن مثل أمه وتقلبت وسيلة وقالت :

– يتصور أنني منهن .. يريدني أفعل له مثلما يفعلن .. لكن فشر ..انني لا أعرف مضـغ اللبان .. ولا وضع مقصوص الشعر على الحاجب .. ولا زحلقة المنديل .. لا أعرف الكلام بالعين والحاجب ولا النظرة الساهية .. ولا أدعك كعوب رجـلي بطوبة حمراء ..

فقالت جدتي :

– لأنهما حمراوان لوحدهما .

ـ النبي أشرف خليقة الله لا أغسل وجهى أبدا ٠

ـ لكنه يتورد يا ابنتي رغم ذلك ٠٠

ـ لا أقصد حين أمشى أن أهز صدرى ٠

ـ ليس ذنبـك ٠

ـ لا أقصد والله العظيم أن أكون جميلة ٠

ـ دعك من هذه الأفكار يا ابنتي ونامى ٠

وتنهدت وقالت بعد برهة :

ـ لعنـة الله على « الغرابوه » ٠٠ البنـات الغرابوه » هن السبب في هذا ٠٠٠ و ٠٠ و ٠٠ الغربة هي أصل السبب ٠

انتقلت الى جوارها ٠ سألتها عن هذه الغربة ، وعن السبب فى أنها تلعنها دائما فقالت :

ـ ربنا لا يكتبها عليك يا ولدى ٠٠ انها تجعـل النـاس يقولون : البلد التى لا أحد يعرفك فيها ٠٠ امشى عاريا فيها ٠٠

بلعت ريقى ٠ قلت لها :

ـ من هم الذين تسمونهم بالغرابوه ؟

قالت وهى تتحسس رقبتى وتتثاءب :

ـ مقاصيف الرقبة ، الذين تراهـم هنـا فى بعض الأيام يردمون البرك ، انهم والعياذ بالله كالبلاء ٠

ـ انما ٠٠ انمـا يا جدتى ٠٠ من غد سنذهب أنا وأبى الى الترحيلة ٠٠ فهل سنصير نحن الأخرين غرابوه ؟

شهقت جدتي :

ـ لا ... يا ولدي .. ان طبعنا يختلف عن طبعهم .. فنحن نعرف آباءنا وأجدادنا ، وعائلاتنا .. الأب يحكم الابن حتى في غيبته .. الواحد منا لا يأتي الفاحشة لأن أباه النائم في القبر ـ يمنعه .. و .. اننا لا يجوز أن نصير « غرابوه » مهما ابتعدنا عن هذه الديار .. فالأب لا يبارح دماغ الواحد منا أينما ذهب .. الواحد منا يا ولد حين يجيء مرة لارتكاب الفاحشة يتذكر أن الألسن ستلعن أباه فلا يرتكبها .. الأصل يغلب فينا دائما ، حينما تقع في لحظة ينعدم فيها الأصل .. والغرابوه أليس لهم أصل مثلنا ؟ .. مساكين يا ولدي .. كلهم ولدوا في بلاد الغربة ... الغربة حرمتهم من كل شيء .. فهم في الغربة ناس ... ناس فحسب .. لا يقيمون حسابا لشيء سوى عصا الخولي .. مصيبة هذه العصا يا ولدي انها تعلمك كيف تقول الآه وحدك ... ان طول الغربة يقتل في الناس أصلهم وهذا أسوأ شيء ..

وكنت أريد أن أقول كلاما كثيرا ، ولكنني لم أجد ولا كلمة ، كما وأني أريد أن أسمع وأسمع وأسمع .. ولكن جدتي تتثاءب ، وميلت رأسي على وركها ، أخذت ترقبني فرحت في النوم كعادتي كلما فعلت بي هكذا ..

***

لم تكن الشمس قد طلعت بعد .كل ما هنالك ان الفجر « بربش » بعينيه فامتلأت شوارع البلد كلها بخلق الله من كل لون رجال ونساء وصبيان وبنات وعجائز كلنا ذاهبون الى « ملم الأنفار » الذي حدده المنادي عند نخل كحكاية .. النخيل يقع في المدخل الشرقي للبلد وحينما وصلنا اليه أحسست بالفرح . فقد كنت أفرح كلما وجدت نفسي بجانب النخيل حتى في الأيام التي لا يكون فيها بلح . على أن صوت « كحكاية » حارسة النخيل كان يجعجع

كالعادة ولكن ماذا يفعل صوتها فى بلد بحالها قيل لها « هنا مكان الانتظار ؟ ٠٠ » ٠

وبدأ الناس يصرخون ٠٠ كان الباشخولى « سيد قاقا » الذى نراه فى بلدنا كثيرا يضرب الناس بعصـاه العوجاية لأنهم صنف واطى وأولاد كلب لم يقفوا صفا لوحدهم صرنا نتخبط فى بعضنا ولم نعرف كيف نقف صفا واحدا ٠٠ وجاء صوت الكارثة ثم ظهرت الكارثة نفسها ثم توقفت خيولها نزل منها رجـل طويل يرتـدى طربوشا وجلبابا من الكشمير وشمسية ٠ ترك الكارثة واقترب منا، عرفته ٠ انه « مصطفى شكرى » كاتب الأنفار أشقر الوجه أحمر الخدود والشارب ٠٠ أهل البلد يعرفونه ولهم فيه العشم ، فهو ليس مثل الكتاب ٠ كتاب الأنفار يجيئون من مكان بعيد ولا تعرف كيف تكلمهم ، انما هو ابن « شكرى أفندى » الرجل السكرة الذى يسكن سراية فى البر الشرقى عند ترعة خلاف ولا تمنعه قبعته أو بدلته أو عصاه الأبنوس من القاء السـلام على النـاس والرد على سلامهم بقوله : اتفضل ٠٠ اتفضل والله » وكل الناس تحبـه ولا تؤخر له طلبا ، وأنا أيضا أحبه لأنه لا يشخط فينا حين نتجمع حوله لنتفرج على ذلك الذى يغرزه فى جنب فمه ويصير لا شغله له ولا مشغلة سوى اشعاله ، وقد سألت أبى ذات يوم ان كان العمدة قد حكم على « شكرى أفندى » بأن يفعل هذا طول النهار والليل فضحك وقال انه هو الذى حكم على نفسه بذلك ٠ ابنه مصطفى هو الوحيد من لابسى الطرابيش والأحذية الذى لم نناده بالآفندى، بل ننطق اسمه هكذا كأنه واحد منا ٠٠ مصطفى ٠٠

كنت أحس بالفرح يتنقل من واحد الى واحد من أول ما رأينا مصطفى ٠٠ ثم اننى سمعت ناسا يشهقون فنظرت ، فاذا برجل يهبط من الكارتة ، أفندى هو مثل الفلق وفى عرض باب الزريبة

يلبس قبعة ويمسك بيده اليمنى كرباجا وباليسرى منشة ذات يد تبرق مثل الذهب وقالوا في همس خائف « الناظر خفاجة ٠٠ الناظر خفاجة » ووقع قلبي في القناة ٠٠ كانت أختي وسيلة تتحدث في عز النوم وتصرخ قائلة : « خفاجة ٠٠ خفاجة » فتنهض جدتي جالسة وتقول « منه لله ٠٠ ينشك فى دراعه » ثم تردد بعد برهة « يا ترى عامل فيك أيه يا قلب أمك » ٠ مصطفى شكرى يمشى ٠٠ الخولة والباشخولة يجرون اليه يعقد حاجبيه ويكشر ويشير اليهم بالقلم ليقفوا صفا بحذاء النخيل ، جاء السيد قاقا يجرى هو الآخر رافعا ذيل جلبابه ووقف أمام خفاجة محنيا مثل كلب البكاروة حين يكف عن الهوهوة ويهز ذيله أمام أصغر طفل في البكاروة ٠ وظهر المقاول « على منصور » بكرشه الكبير وخدوده الحمراء وطربوشه وشمسيته٠ راح يمشى على مهل كالمحمل : نعم ياعم ٠٠ هو ليس كالأنفار يجرى من الفزع وليس كالباشخولى يطوح ذيله ، كما وأنه هو الآخر يسير خلفه حفنة من الرجال يسمونهم بالسواقين صنعتهم اللف على دور الأنفار والتبييت عليهم واعطائهم العربون ٠ « على منصور » يسلم على الكاتب ويقف بجواره ٠٠

وأخرج مصطفى دفتره وقلمه الكوبيا في الحال استدار السواقون وغادروا المقاول ، ثم أخذ كل منهم ينادى على الأنفار الذين اتفق معهم وقبضوا منه العربون ٠٠ تمايل الصف الطويل وراح يتساقط وراح كل سواق يحوط على حفنة من الأنفار ٠٠ تقدمت الحفنة التى أنا فيها مع أبي واخوتى خلف « متولى العبد » ووقفنا حينما وقف ثم تراجعنا عنه قليلا ٠٠ وأخذ السواقون يدفعوننا بأذرعهم ويوقفوننا في الصف من جديد ولكن على مزاجهم هذه المرة بعدها ظللنا واقفين لا نفعل شيئا لا أحد يريد أن ينظر الى جاره فظننت أنهم جميعا يؤدون الصلاة وبعد برهة سيركعون ، وتمنيت أن يعجلوا بالركوع حتى أسند رأسي قليلا على الأرض وأثنى قدمى ٠٠ لكن الصبح لم يعد حنونا كما كان عندما خرجنا

من الدار حاملين قفة الزوادة وصرة بها هدومنا وبطانية وجوالين ثم ان الظهيرة جاءت ولم نركع بعد ·· ونشف ريقى ·· وقال أبى دون أن ينظر الى « مالك يا ولد ·· بتكح كده ليه » واذا بى أبكى فقرصنى لأسكت ··· أنا أيضا أردت أن أسكت وما استطعت · فضغط أبى على أنيابه وقال بغيظ « بتبكى ليه يا ابن الكلب »

خرج صوتى غصب عنى « رجلى وجعتنى ·· أهىء · ره · رجـ · لى · و ··· » ·

ــ أسكت يا ابن الكلب ·· نهارك أسود ··

وزغدنى بقسوة ، وأخذ يقول فى خوف :

ــ ستفضحنا ·· الناظر سيراك ·· سيطوقنا بالكرباج ··

مالت أختى « وسيلة » على أذنى وهمست :

خفاجة موته وسمه من يتحدث مع الآخر ساعة فرز الأنفار ·· لو شافك سيعدمك العافية ·· هس ·

واعتدلت فى فزع ووقفت مثل عود القصب أما أنا فحركت قدمى الى الوراء فلم أجد أرضا تحتها ·· خفت الوقوع واستندت على كتف أختى · قال أبى يهددنى « قف معدولا يا مائع » ·

البكاء يغلبنى : « أنا دخت يا أبى سأقع » أمسكنى من يدى وظل يضغط عليها وكذلك فعلت اختى وسيلة وقالت فى أذنى : « أوقفناك على قالب من الطوب » صحت « سيوقعنى ·· سأدفعه » صاحت بخوف « لاء ·· خفاجة سيرجعك ·· سيلاقيك صغيرا

وسيرجعك .. قف كما أنت فوق القالـــب لتبقى طويلا و .. »
ولم أجدها بجانبى لابد أنكم تعرفون « النجمة أم ديل » تلك النجمة
التى ينقطع خيطها من السماء فجاة فتهوى على كتف الأرض البعيدة
كشرارة النار .. هكذا رأيت أختى وسيلة طارت فى الهواء صارخة
واندلقت على الأرض تعوى مثل الكلب .. و .. اختفت الدنيا من
وجهى اندب عامود من الحديد الملتهب فى عينى وأخذت أدبدب فوق
الأرض وأدور بعد أن ضاع قالب الطوب من تحتى كنت أصرخ ،
وكانت عينى تتقلب تحت كفى وتصير مثل كتكوت ينقر بمنقاره
فى دماغى . صاح أبى وهو يشهق باكيا « يا حبيبى يابنى ..
طرف الكرباج طير عينيك » هنا كفت وسيلة عن الصراخ ، وراحت
تزحف على الأرض وتقول آه .. ثم وقفت بجانبى تتساقط الآهات
من فمها ، وتتحسس عينى بيدها ، وتحسس جنبها بالأخرى .
قفز الباشخولى أمامنا وجعر : « بس » فوقفت الآهة فى حلقينـا
وكنت أرتعش .. جعر الباشخولى « اقف عدل » فانسلتت يدى من
يد أختى ورفعت وجهى عن الأرض لكن جانبا كبيرا من النور اسود
فى عينى .. وضعت يدى على عينى أريد أن أسكت الألم ثم ان ظلاما
أخذ يقترب ويحيط بنا عرفت فيه الناظر والكاتب والباشـخولى
ومتولى العبد وكثير ممن لم أعرفهم .. راح الناظر خفاجة يقف أمام
كل واحد ، ويلف حوله وينظر فيه ، ثم أنه أشار الى صبى نحيف
وصرخ فيه : « اطلع بره » فمد الولد رجله ، وارتفع الكرباج وشرخ
الهواء ، مثل غبيط السباخ وقع الولد وانفـــرط وبعثر الصراخ
كالتراب وتكوم حول نفسه ليقف ثانيـــة ، على أن خفاجة قذفه
بالشلوت صائحا : « على أمك يا ابن الزانية » واندفعت أيد وأخذت
تجر الغبيط على الأرض حتى ألقت به بعيدا . ثم ان خفاجة مسح
جبينه بالمنديل وراح ينظر فى وجـه أبى ويلوى شـفتيه وبرطم
قائلا : « جايبينكم منين .. من القرافة » ثم صاروا أمامى كلهم
فكأننى وقعت فى بئر وغطتنى الميـاه .. وضـحك خفاجة وشخر

ورفعت وجهى رأيتهم جميعا يرتعشون ارتعشت أنا الآخر وراح البكاء يهزنى يريد أن يخرج وأنا أسد فمى بيد وأضع الثانيه على عينى ٠٠ أما الناظر خفاجه فانه زغد الباشـــخولى وأشار لى بيد المنشة وقال « أمال ايه ده » ٠ قال الباشـــخولى بخوف « ما ٠٠ ماذا ؟ » صار خفاجة ينقر بيد المنشة فوق دماغى بقسوة « هذا ٠٠ هذا ٠٠ هذا » لوى الباشخولى رقبته فزحف المقاول ووقف أمامنا يبتسم وهز رأسه للناظر مرة وللباشخولى مرة وبعصـــاه أشار الباشخولى نحوى « أمال ايه ده ياشيخ على » فاقترب المقاول منى كأنه يدوس فوق صدرى وصار يفحصنى ويلوى شفتيه ، ثم رجع برأسه وصرخ : من الذى دسك هنا يا ولد ٠٠ اطلع بره » صارت الأرض تنقلب يمينا ، وتنقلب شمالا وصرت لا أعرف كيف أصد نفسى عن الصياح والبكاء وعوجت رأسى لأنظـــر الى أبى فوجدته لايريد النظر الى ، ومددت يدى لأمسك يد أختى فوجدتها تنزاح عنى ، فاندفعت أبكى وأقول « تعاليلى يا امه » وصرخ المقـــاول : « من الذى دسك هنا » ورفع يده ليضربنى ٠٠ هويت الى الأرض صارخا « فى عرضك أنا جئت لأشتغل ٠٠ وهذا الرجل هو أبى ٠٠ هو الذى قبض لى ٠٠ مالى أنا هو الذى قال لى تعالى » ورأيت رقبة أبى تقصر وتغوص فى كتفيه ثم ان المقاول « على منصور » طبق فى خناق « متولى العبد » وهزه وصاح « كيف تتقاول مع هذا » وكان خفاجة لا يزال يضحك ويشخر ٠٠ أما الباشخولى فدفع أخى طلبه بعصاه فى مؤخرته فانطلق يجرى نحو البلد أما أنا فكنت ممدودا على الأرض محوطا بدائرة من الناس ٠٠ زغدنى خفاجة ببوز حذائه وصاح : « ياللا ياولد قم » ٠٠ فقمت واذا بالقلم يلهف صدغى ، فدرت مثل الفأر فى المصـــيدة وطرف الكرباج يلاحقنى ، وما أن وجدت طريقا بين الواقفين حتى انسللت مرتعدا وأخذت أجرى فى الحقول مثل كلب هارب من السماوى ٠٠

عند بحر السبيل توقفت ٠٠ وجدتنى أرتمى فوق كومه من الردم ، النفس يخرج من بطنى أحسست بشىء يسيل على فخدى ٠ عرفت أننى قد « فعلتها » على نفسى دون أن أدرى و ٠٠ حزنت حزنا شديدا ٠٠ حين تأكدت أن خفاجة ليس يجرى ورائى بالكرباج تمطرقت على ظهري وأخذ الكتكوت الذى فى عينى يتقلب وينقر فى قلب دماغى ، ورأيتنى أتوكأ على عصا مثـل الشيخ فرحات والشيخ الكردى وأقرأ القرآن رواتب وحول المقابر وهنا اشتعلت النار فى عينى ، وتهيأ لى أننى سأستريح من الألم اذا نفضت رأسى فى الأرض حتى تتكسر وتصير مثل الروم ٠ على أننى أمسكتها بيدى ورحـت أصرخ وأرفس الأرض وأتمرغ ثم أننى أحسست بدماغى ينفلق وتتدافع فيه الرياح ٠٠ وتاه من كل شىء ٠٠

***

٠٠ أنفاسى ساخنة وكريهـة ٠ على وجهى حذاء يضغط على صدرى ٠٠ أحاول الصياح ولا أستطيع رفع صوتى أو تحريك أى شىء فى جثتى ٠ الناظر خفاجة يمسح نعل حذائه فى صـدغى ٠ الخفراء يمسكون أبى ويقيدون أختى ويمنعونها من المجىء الى ٠ فى نعل الحذاء مسمار يريد أن ينغرز فى صـدغى ٠ و ٠٠ وجدت صوتى ٠٠ اذا بى أسمع نفسى اذا بى أصرخ واضعا يدى على عينى .
اذا كلب كان يلحس نفسى اذا بى أصرخ واضعا يدى على عينى ،
اذا كلب كان يلحس فيها وأنا نائم ٠ انتفضت جالسـا وقذفت الكلب بطوبة فى أذنه واستغربت أن تنغلق لى عين فأرى بعين واحدة كل شىء ، كل ماهنالك أننى لابد وأن أعوج رأسى الى اليمين كلما أردت النظر ٠٠ نحو بحر السبيل زحفت حتى صرت مختفيا فى البوص المزروع على الشاطىء وفرحت بذلك ٠ فخلعت جلبـابى وسروالى وغسلتهما فى بحر السبيل ، وأيضا قلدت أمى وتركت الثوب بين راحتى بشدة ، وعصرتعهما ، ونشرتهما فوق أعواد البوص

كما وأنني وضعت قدمي في الماء ورأسي بين أعـواد البوص ولكن الشمس لم ترحمني ، لا الماء يجود ببرودة ولا البوص يترك ظلا . وقلت لنفسي : كان الله في عون الأنفـار . هل لأن أخي طلبـه سيتحمل هذه النار طول النهـــار في الترحيله ؟ والله ماظني . الحمد لله ان خفاجة طرده ، زمانه الآن في الدار يبكي ، وزمانه قال لأمي عما حدث لي . ثم تذكرت الأنفار والملم فوقفت على كومة الردم وعوجت رأسي وبربشت في الشمس .. كان الانفار مازالوا واقفين في عز اللهب . تذكرت جدتي .. كانت دائما تتحدث عن يوم اسمه يوم المشهد العظيم ، أظنه يحدث يوم تقوم القيامة ، وفيه يخرج الناس من قبورهم ويقفون تحت عين الشمس الحارقة في انتظار الشفاعة المحمدية اذ يجيء سيدنا محمد ويقول لربنـــا « عشان خاطري يارب .. دعهم يعودون الى القبور » وبعدها يمشي الناس فوق حد سيف لا بداية له ولا نهاية فمن كان صالحا مشى في أمان ومن كان فاسقا وقع فابتلعته جهنم الحمراء .

. . . .

حوافر تدق الأرض من خلفي .. هبطت بسرعة ودازنت نفسي في البوص وأخذت أنظر ياله من منظر . أحصنة تسير على الطريق الزراعي وفوقها رجال شداد يتقمطون بملابس صفراء سراويلهم تلتصق بأرجلهم ولا أعرف كيف لبسوها خصوصا وأنها ملتصقه بالأحذية الكبيرة في أقدامهم . هذ واحد يتميز عنهم بشارات حمراء وخضراء ويبـدو أنظف منهـم ويبدو أيضا أنه ثقيل الدم منظره مخيف فلابد أنه الملك فؤاد الأول تحيا مصر ، وربما يكون صاحب الوسية ان جدتي تقول أن صاحب الوسية محمد على باشا فهل يكون هو ؟ انه يمشي وهم يمشون خلفه يحرسونه بالغدارات . صار وقع الحوافر يقترب وصار مثل الطبل في أذني وصار يبتعد من جديد نحو البلد . وقلت ان الأحصنة بمن عليها تقصد الأنفار ولكنها تركتهم ودخلت البلد ثم أنني ســـمعت طبلا حقيقيا ..

وها هو ذا الريس « حيطاوى » الطبال يقترب بفرقته النافخة فى المزامير البوص قادمين من هناك من أول ترعه المشروع . الأنغام حنوه ولكن لا أعرف لماذا هى تقطع القلب وتجعلنى اهم بالبكاء . صارت فرقة الطبل تزحف الى أن حاذت الأنفار واختلطت بهم وكفت عن الطبل .. ورأيت الجميع مثل جبل من الدود الكبير يركب فوق بعضه ويزحف خارجا من تحت بعضه .. ثم .. صياح وزعيق وصفير .. ثم اذا بالطبل والزمر يرتفع من جديد . واخذ جبل الدود يهتز ويهتز وصوت الطبل يشيله ويحطه الى أن تفتت وتناثرت منه قطع كبيرة صارت تنفلق وتتحول الى رجال . على أن الجبل كان قد صار الى نصفين ، نصف ينحدر عائدا الى البلد والآخر يزحف نحو عربة الكردى .. والدنيا تسبح فى الغبار ..

***

عزبة الكردى أو سراية الكردى لا يهم فأنتم تعرفون أن سراية الكردى هى عزبة الكردى وعزبة الكردى هى سراية الكردى . فيها يسكن الخولى والباشخولى . يقيم الكاتب . ثم ان السراية لا تفتح أبدا الا اذا جاء الناظر خفاجة ليستريح فيها ويمكث فى الناحية أياما .. ذلك فى الأيام التى تخلو فيها الوسية من الشغل ، أما فى أيام الشغل فهو يجىء بالكارتة صباحا ويرجع الى كفر الشيخ عند المساء . هذا ما يقوله أبى دائما . والله لقد ازدادت حيرتى .. لماذا تذهب فرقة الريس « حيطاوى » الى الكردى ؟ ويتجه الرجال المقمطون الى البلد ؟ ما الذى حدث فى الكردى وما الذى حدث فى البلد ؟ وما الذى بعثر الأنفار فذهب فريق منهم وراء الطبل وفريق وراء الرجال المقمطين ؟ .. أنا شخصيا لم أعرف السر ولكننى أحببت الذهاب الى الكردى . وكان فى نفسى شىء يقول لى : ياولد اذهب خلف الرجال المقمطين فلابد أن هناك ما يستحق الفرحة .

وكانت السراية التى يقولون أن الملك يجىء ـ ليستريح فيهـا ـ لا تبارح دماغى ٠٠ وكنت أسأل أبى عما يحدث خلف شـبابيكها الخضراء والحمراء والزرقاء وعما يفعله الملك مع بنات الحور فكان ينفجر ضاحكا ثم يدارى حنكه بكمه وينظـر حواليه فى خـوف لا أعرف له سببا أخذت أجرى وأقفز فوق القنوات وشـجيرات القطن ، والشمس تلسعنى فى ظهرى ورأيت ظلى هو الآخر يجرى بجانبى وكان عاريا ، فتذكـرت جلبـابى وسروالى ٠ ووقفت وارتديتهما وأخذت أجرى خلف الطين ٠

***

سراية الكردى مثل العروسـة زينوها بسعف النخيـل والمناديل الحريرية ٠٠ بين السراية والبيوت الطين جرن كبير امتلأ بالرجال أغلبهم فى عمر خالى معاطى ـ لابـد أن ابن الملك سيتزوج الليلة قلت هذا فضحك الذين حولى ٠ ثم ان الطبل بدأ يرتفع ويرتفع والمزامير تدخل فى أجساد الرجال ٠ وتسحبهم الى الدائرة ، يروحون ويجيئون فى الدائـرة ويرتفعون فى الهـواء ويهبطون ويرقصون بالنبابيت ، ثم يهجم أحدهم فجأة بنبوته على أحدهم وأتأكد أنه سيقسم وسطه لا محالة ، ولكن الآخر يطير فى الهواء فتطير الضربة ٠٠ كدت أصرخ من الفرح ، فقد رأيت خالى معاطى يلعب معهم بالنبوت ، ورأيت الجميع يلتفون حوله وينهالون عليه ضربا ولكن ضربة واحدة لم تصب جسده ٠ وفى الآخر رفعوا النبابيت صـائحين ثم انسحبوا من الدائرة يمسحون عرقهم فى أكمامهم وديول جلابيبهم ولم يبق فى الدائرة سوى خالى معاطى الذى وقف برهة كأنه يقول : « الرجل فيكم يطلع لى » ثم انسحب وعاد الى الواقفين فجريت نحوه أكاد أطير من الفرح ٠

ثم ان المزامير هدأته برهة ثم تسللت وارتفعت مع الطبل على واحدة ونص . وغمزني خالى وقال : « شايف أبوك ياوله » واذا بى أراه .. أبى يتحزم بلاسة حريرية ذات شراشيب رفيعة تـروح وتجيء مع هزة وسطه .. وسألت نفسى : هل هذا هو أبى حقا ؟ الذى كان فى الصباح مثل الكتكوت الكمشان ينذر بقرب موته ؟ شيء واحد لولا حدوثه لما صدقت أنه أبى ، تلك نظرته نعم فقد كان يرقص رقصة الخيل ، ويقترب منا وفى عينه نظرة هى بعينها النظرة التى ينظرها أحيانا الى أمى فتخفض وجهها وتطلب منـــا أن نقوم ننام .. قال خالى :

ـ أيعجبك أبوك ياوله ؟ .. بهلوان .. آه لو علمت أمك .

ـ هو ايه اللى حصل والنبى يا خالى ؟

ـ اتفرج ولا تسأل .

ثم اندفع فجأة وألقى بنفسه فى قلب الدائرة فصاح الذين حوله وصفقوا . وفى لمحة كان قد تحزم هو الآخر بلاسة حريرية .. واختطف نبـــوتا وراح يثب ويزأر فتتسع له الدائـرة ويرتفع الصياح . ثم وقف دفعة واحدة خابطا الأرض بطرف نبوته بين أقدام فرقة الريس حيطاوى .. فانخرس المزمار فجأة .. ثم رفع خالى نبوته بيديه ورفع وركه لليمين فزفر المزمار ودقت الطبلة . ثم هبط بوركه ورفع الأخرى .. ثم راح يكرر هذا والمزمار يصاحبه .. ثم أخذت الحمية تدب فى جسده . ثم أخذ الجميع يصفقون له .. على واحدة ونص ..

***

لم أنتبه الى أن الواقفين كلهم مشغولون بشيء آخر غير الطبل والزمر والرقص . ولم أعرف الا حين صاح واحد بجانبي وكز علي

أسنانه : « ياولد ·· أموت قتيل والنبى » ·· ونظرت اليه فاذا به قد علق بصره بشباك السراية ·:· وعوجت رأسى لكى أنظر ·· واذا بى أراها ·· السنيورة ·· كانت واقفة فى شباك السراية تستند بكوعها على حافة الشباك ، والأســاور الذهب تلمع فى يديها ، وصدرها عريض ومنتفخ ، ورقبتها طويلة وذقنها مثــل رأس الجوافاية ·· الحلوة أما شعرها فينطرح على كتفيها مثل حزم البرسيم ·· وأقسمت أنها زوجة الملك ·:· وأخذت أشب وأشب الى أن تململت السنيورة فى وقفتهـــا ثم ابتسمت ثم اعتدلـت وانسحبت وغابت عن عيوننا ·· بعدها أطل وجه الناظر خفاجة ، فسابت ركبى ولم أقدر على الجرى انما داريت نفسى فى الرجال ·· قال خفاجة بلسانه المعووج :

ـ الهانم انبسطت ·· وتقول لكم ·:· خلاص ·· عودوا الى بيوتكم ·· ثم اختفى فى الحال وهاص الرجال · وامتطيت كتفى خالى معاطى الى البلد ·



الفصل الثانى

الولد « طلبه » يتـــدخل

ويحكى : كيف ماتت « بسيونية »

والله والله أنا عرفت لوحدى ان أخى مختار ذهب الى الكردى مع الطبل والزمر · أما أنا فحين طردونى ·· وقفت ·· اختبأت فى النخيل خفت على أبى وأختى وسيلة وأخى مختار ·· ولما رأيت الرجال المقمطين ، خفت أيضا وقلت : لابد أنهم جاءوا يطردوننا ويضربوننا و ·· اختبأت حتى لايرانى أحد ·· ولما سمعت الطبل والزمر طلعت أجـرى وراءه ورجعت لانى لقيت الطريق مسدودا بترعة المشروع والكوبرى مسدودا بالانفار ·· ولما ساح الطبل فى الأنفار ، رأيت الناس يعودون الى البلد ، فعدت معهم وقلت : لابد أن أبى وأختى وسيلة وأخى مختار قد عادوا أيضا ·· وكنت أرى العجب · النســاء يخرجن من الدوار وينظرن الينـا ، يمسـحن الدموع ، ويدخلن الدور ويصوتن اما الرجال فيمشون ولا أحد يكلم أحدا · الدكاكين مغلقة · قلت لابد أن مفتش الصحة أو مفتش التموين أو الموازين موجود فى البلد ·

ظللت أمشى مع الناس ·· وعنـــد بيت العمدة وقفوا ·· ورأيت الرجال المقمطين ·· واحد منهم يجلس ويضع رجلا على

رجل · والآخرون واقفون حـوله يمسكون الكرابيج · اما العمدة فقد وقف هو الآخر ، وكان يعدل طوقه مرة ، ويسوى زر طربوشه مرة أخرى ويتفتف مرة ثالثة وكان الغفر يمسكون الأحصنة ويقفون بعيدا ·· وجاء شيخ الغفر وأخذ يضرب فى الناس ويقول « على ماذا تتفرجون يا غجر ؟ على ماذا تتفرجون ؟ جاتكم النيلة فى سنينكم السودة المهببة بهباب الفرن » وذهب الى الأحصنة وأخذ يتحسس رقبتها ·· وظهر أبو الحسن » الصياد يسحبه الغفير من خناقه · قال العمدة للرجل الجالس « هو ده أبو الحسن ياســعادة البيه » والرجل الجالس نظر فى وجه « أبو الحسن » وفى ذقنه الطويلة البيضاء وقال :

ـ ماذا رأيت ياولد ؟

وضع ·· أبو الحسن يده على صـــــدره وقال مثلما يقـرأ الفاتحـة :

ـ طرحت الشبكة ·· بعد قليل سحبتها ·· وجدتها تقيلة ·· قلت : خير يا رب ·· شددتها ·· فاذا به يطلع فى الشبكة ·

والعمدة يكز على أنيابه ويقول :

ـ وشك فقر طول عمرك ·· وجه مصائب ··

قال أبو الحسن ورقبته تنكفىء على صدره :

ـ هل قلت له اطلع فى شبكتى ؟

شوح العمدة بيده وقال :

ـ أكان لابد أن تطرح الشبكة فى هذه الساعة النحس ؟

و •• أبو الحسن يعوج رأسه ويبكى :

ـ انه بختى الأسود •• فى كل مرة يطلع من المصرف وحده ، ما الذى جعله هذه المرة ينتظر شبكتى •• ؟

والرجل الجالس ينظر الى « أبو الحسن » ويشخط فيه :

ـ أتصرف •• بالضبط •• من أين كانت الزكيبة قادمة ؟

و « أبو الحسن » يشير بيده الى الوراء « من هنا » فيصرخ فيه : (حدد من أى جهة) فيقول أبو الحسن من ناحية التفتيش •• نعم من ناحية التفتيش » والناس ينظرون الى بعضهم والرجل الجالس يرفع رأسه ناحية اليمين •• رجل واقف وبيديه دفتر وقلم ولايكف عن الكتابة ولما نظر الى الرجل الجالس كف عن الكتابة وانتظر •• فعاد الرجل الجالس ينظر الى « أبو الحسن » ويقول :

ـ لا تخرف ياوله •• أجب مثل خلق الله •• ما للتفتيش

وللزكيبة هنا ؟ •• هذه زكيبة بها قتيل مجهول •• وانت عثرت عليها فى المصرف •• فما دخل التفتيش هنا ؟ قل انها قادمة من الشرق من الغرب ، من قبلى ••

« وأبو الحسن » يبلع ريقه ويقول :

ـ ما •• ما من أين يقبل المصرف يا سعادة البيه •• من ناحية الكردى طبعا •• والكردى من مراكز التفتيش والمصرف أصلا •• يأخذ من مصرف آخر •• والمصرف الآخر موجود فى كفر الشيخ •• وكفر الشيخ هى •• الخالق الناطق •• التفتيش صرخ الرجل وقف وبرطم بكلام كتبه حامل الدفتر والقلم •• هاج

الناس واختلطوا بالأحصنة • هاج الغفر وصاروا يضربون فصرنا نجرى ونختبىء فى الحوارى •

فان الذين يفهمون أن الفرجة كلها ستنتقل الى المصرف ، ومشوا فطلعت أجرى وراءهم حتى وصلنـــا زكيبة كبيرة ممدودة فوق الأرض ـ ذوبتها المياه أو أكلتها الأسماك كما قالوا • برزت منها قدمان ـ ويدان ورقبة لا رأس لها • وجاء الرجل الذى كان جالسا ومعه العمدة والأحصنة والغفر والرجال المقمطون •• وحين برز الرجل الذى كان جالسا صــاح رجال « النيـــابة وصلت » وضربونا • وابتعدنا قليلا • ثم دخل الرجـل ـ النيابة » وأخذ يقلب الزكيبة ويلوى بوزه ويبصق حواليه وينظر لحامل القلم ويقول كلاما فيكتبه وقال العمدة :

ـ اليست مصيبة يا سعادة البية ؟ ••• لو ان دماغه فى

رقبته ، لكنا تعرفنا عليه فى الحال •• المصيبة أنه يجىء دائمـــا بلا دماغ •• فى كل مرة يجىء هكذا •• بلا دماغ • وقال الرجل النيابة : « ماذا تقصد ب •• كل مرة ؟ » •

المصيبة أن العمدة ابتسم وقال « ليست هذه أو مرة ياسعادة البيه •• ليست أول مرة » قال واحد من الواقفين معنا « ولا آخر مرة » وقال آخر « يعلم الله على من سيجىء الدور » •
وقال الرجل النيابة « لا أفهم » •

وأما العمدة فانه قال :

ـ ياســعادة البيه •• هذا حادث يتكرر كل عام أو عامين أو ثلاثة أو أربعة •• لكنه يتكرر

أصبحنا نعرف ميعاده ·· هذه المرة هبطت عليه شــبكة الصياد ·· انما هو كان يعرف طريقه ·· يعوم فى الماء حتى يصل الى زمام بلدنا ·· ويقف ·· وقال واحد من الواقفين :

ـ يطلب أهله ·· الغريب يحن لبلده ولو كان جثــة فى زكيبة ·· وأين يروح المسكين أنه لابد أن يرجع لبلده ··

واذا بالرجل النيابة يشير اليه بأصبعه ويقول : « تعالى هنا يا ولد » فاذا به الشيخ فرحات الأعمى المنادى ·· تقدمته عصاه ووسعت له الطريق ·· والعصا رأت مكان الزكيبة وقالت للشيخ فرحات فوقف بجانبها فصار أمام الرجل النيابة · ابتسم الرجل النيابة وقال :

ـ تعرف صاحب هذه الجثه ؟

هبط الشيخ فرحــات وتقرفص متأبطا عصــاه · ومد يديه وتحسس الجثة وجعر « عرفته ياسعادة البيه » ·· وكان هناك ولد القى حجــرا فى المصرف فتناثرت الميــاه على كل الوجوه وبرطم الناس كلهم وجرى خفير وراء الولد وصاح الرجل النيابة « كيف ·· كيف عرفته » وقف الشيخ فرحات قائلا : « رأيته » ·· وقال الرجل النيابة » ولكنك من غير مؤاخذة أعمى ؟ ومد الشيخ فرحات رقبته أمام الرجل النيابة وقال :

ـ شف يابك أنا صحيح أعمى ولكنى أرى أكثر من أى واحد ·· انكم ترون بعيونكم فقط وهذا هو سبب المصائب ·· أما أنا فأرى بعيون كثيرة : عصــــاى ويداى وقلبى وأذنى وصدرى ·· ما أراه أنــا قد لا يراه أحــد المفتحين ·· أعــــرف صاحب هذه الجثة معرفة جيدة ·· نعم · هذه اليد سلمت عليها ألف مرة ·· هذه القدم انكسرت مرة وجبرتها ·· فقد كان رحمه الله من الذين

يقفزون كثيرا يتسلقون الجدران لم يكن لصا انما ابن ليل ·· عنترى يأخذ حقه بذراعه · أما هذا الجسد ·· المعبأ فى زكيبة ، فقد احتضنته بقوة يـوم سـفره ·· نعـم ·· كنت واثقا أنه سيصبح جثة فى زكيبة ، ولهذا ، احتضنته بقوة فهو الآن حى بداخـل صدرى ·

انفجر الواقفون كلهم فى البكاء حتى العمدة هو الآخر بكى · أما أنا فقد أردت البكاء ولم أجـد دموعا فسكت · ونظـر الرجل النيابة الى حامـل القـلم وقال : « الجانى مجهـول ·· مجهول والمجنى عليه ·· مجهول أيضا » ·· ونظر حواليه وقال : « أوسعوا طريقا » · لكن السماء صوتت عاليا فرحنا ننظر ·· واذا بامرأة قادمة تجرى من عند كباس المعلم عيده ، والريح تقابلها وتطوحها ، وتبعثر ثيابها السوداء ·· وبدأ الرجل النيابه يمشى ولكن الواقفين كلهم ظلوا فى وقفتهم لا يعبأون بصياحه والصوات يقترب والمرأة أيضا تقترب ، وكانت تشـوح بيديها وتمزق طرحتها وتهيل التراب على رأسها وقد عرفناها ، وأوسعنا لها الطريق الى الزكيبة فارتمت فوقها تصرخ · وقال الرجل النيابة « من هذه » فقال الجميع انها « بسيونية » بائعة الطماطم والسكر والشاى والوظائف ·

***

·· كلنا نعرف بسيونية ·· تبدو أصغر من أمى ولكن الجميع كبارا وصغارا يقولون لها ياخاله يكلمونها بأدب شديد ، ويصدقون كل ما تقول · لهـا دكان يجلس فيه الناس ويأكلون ويشربون الشاى والحساب يجمع كما يقولون لها · وفى كل محصول يقول الرجال لبعضهم ياللمصيبة أريد أن أدفع حساب بسيونيـة وحين يريد أحد أن يشتكى أحدا فانه يذهب الى العمدة أما بسيونيـة

فهى تنتظر العمدة ساعة يجىء عندها يأكل الفسيخ ويشرب الشاى .. مرة سألت أبى « هل بسيونية قريبة الملك » فضحك وقال : عقبال أملتك يا ابنى » فسكت فعرفت انها قريبة الملك بحق . ومرة ثانية ذهبت حارتنا كلها تستعطف بسيونيـة لكى تعطيهم مهلة يسددوا فيها ثمن الشاى والدخان لأن الوسـيـة ليس بها شغل وحينما عادوا من عندها قالوا وهم يبتسمون أنهـا اكتفت بلعن آبائهم . فسألت أمى « هل بسيونية قريبة الملك » فقالت أمى :

ـ العقبى لى يارب .. أشـوفك مثل ابنها .. انه يشتغل فى التفتيش أنه .. ربنـا يعطيك .. سائس .. سائس للبغلة .. بغلة التفتيش يمسحها وينظفهـا وينظف لهـا ويسرح بها ويخدمهـا ..

ولحظتها قال أبى وهو يتفتف ما علق بلسـانه من ورق البافـره :

ـ ويشرب السجاير المكن .

فردت أمى :

همك وهم السجاير ؟

فيقول وهو يلعب حاجبيه « يامـن يوصلنى الى البغلة وأنا أريهـا » ..

فتغضب أمى وتقول « لا أمان لكم يا رجال .. كلكم عيونكم زايغـه » ..

وأبى يقول بحرقة « لقد رأيتها • مرة واحدة • قشطة • فطير دماس » وتحيرت أنا مثلما تحير اخي مبختار ، ولم نعرف شكل هذه البغلة التى هى قشدة وفطير دماس وتركـب الكارتة وتبص من الشباك وتغار أمي منها ، فيهجم أبى عليهـــا ويطوقها بذراعيه ويقول كما تموء القطط « أتصدقين •• ليس أغلى منك عندى » فتشد نفسها منه وتقول « كان الله في عون الشبان الصغار » فيقول لها : « أنكره السعد يا وليه » (السعد يكون بالحلال أو لا يكون » فينظر فى عينيها ويقول « بزمنك ألا تتمنين أن يصبح ابنك سائسا لها ؟ » فتشوح بذراعها في وجهه وتقول « فشر بعد الشر » فيبحلق فيها حتى تنكسر عينها ويقول « يا وليـــه •• لا تكذبي على روحـك » فتقرصه في وركه وتقول بغيظ يحبه دائما « قل انك أنت تحلم بها من صغرك » فيعوج رقبته ويغطسها بين كتفيه ويقول « الكذب خيبة •• هل أكذب عليك » فتشوح له « احمد ربنا •• عافاك منها » فيرد بسرعة « أصلى وش فقر » هنا ترفع يدها في وجهـه « كلكم مجانين •• تتصورون انكم تذهبون الى النعيم •• وتنســون أن الآخرة دائما ســوداء أو •• » يغتاظ أبى ويضرب يدها المرتفعة « هكذا الدنيا يا عبيطة •• أتزوجينها وتضمنين بختها ؟ الواحد يرى السكة التى توصله الى الجنة •• فيمشى فيها •• فان قابله الوحش وأكله فهذا حظه وبخته •• اسكتى اسكتى فأنت لا تفهمين وأمي تمتلىء عيناها بالدموع ولكنها تبتسم : « كل من ذهب اليها انفتحت له ولأهله أبواب السعد •• لكنهم دائما يعودون جثة فى زكيبة » يضحك أبى كأنه طفـل ويمسح الدموع ويقول « لو كان البعيد رجلا ما عاد جثة فى زكيبة •• نعم •• هذه هى الحقيقة • أتنكرها ؟ •• لا يرجع جثة فى زكيبة غير الرجل الهفتان ما يوجد فى هذا الرأس مخ أم بصارة ؟ •• الضعفان المرضان الهفتان لابد أن تكون هذه نهايته •• نعم هكذا ومن ليس فى حمل المشــوار لا يمشيه •• ليس كل من عوج الطاقية صار حليوة •• ولا كل

من زهر الجلابية صار شلبيا .. ولا كل من طوح النبوت صـــار عريسا افهمى يا وليه .. البغلة يلزمها رجل .. رجل عفى .. حتى فى عقله وأحلامه وغضبه .. رجل يهد قواها .. ويطفى حرائقها » .. فلا أدرى كيف تجىء الابتسامة وتحط على وجه أمى ، ولا أدرى أيضا لماذا تصر لحظتها أن نقوم أنا واخواتى لننام ..

***

.. بسيونية رمت نفسها فوق الزكيبة وصرخت و .. هى صرخة واحدة لم أسمع غيرها لا .. أظن أنها صرخت مرتين أو ثلاثا « لا أذكر ولكن الصرخة لا تريد أن تخرج من أذنى حتى اليـــوم وصوتها كان مبحوحا : حاهه .. حاهه .. حاهه .. ثم سكتت .. وانفتح الناس فى البكاء .. كنا مثل المقابر صباحية العيد أو فجر الجمعة صوات على طول وبكاء وكلام داخل فى بعضه .. و .. بصراحة لقد بكيت أنا أيضا وأحلف أن الرجل النيابة كان يريد هو الآخر أن يبكى على انه صرخ .. « ايه مناحه ؟ » وأشار للغفر : « شيلو الوليه دى » فما تقدم أحد فصرخ مرة ثانية وبغيظ « قلت شيلوا الولية » . وأيضا لم يتحرك أحد .. والرجل النيابة يكز على أسنانه وينظر حوله .. العمدة هو الذى انحنى ولمس ظهر الولية وقال « قومى الآن يا بسيونية .. قومى وما سيفعله الله يكون » والولية لم تقم ، انمــا لهثت وظلت ملتصقة بالزكيبـة لا تتحرك ولا تتكلم .. وأخذ العمدة يقول كلاما مقطوما . والرجل النيابة يصرخ به « كف عن البرطمة يا عمدة .. عندك معلومات قلها وخلصنا » .. والعمدة يفرد كفيه فى الهواء « أبدا يا بيه .. كفانا الله شر المعلومات .. لكن .. أصل الست بسيونية لها ولد مستوظف فى التفتيش وظيفة كبرى ربنا يعطيك » والرجل النيابة يشوح فى وجه بسيونية « ما شـغلة ابنك ياولية » والعمدة يرد

نيابة عنها « هو سائس بغلة التفتيش » والرجـــل النيابة يزوم وينظر لحامل القلم والعمدة يتنهد ويقول « مسكينة لا تلمها » .. ضاع ابنها زال عزها .. يعني موت وخراب ديار » والرجل النيابة يهز يده في الهواء ولكن من أدراها أنه ابنها ؟ ويرد العمدة : « ايتوه الواحد عن ضناه » فيشخط الرجل النيابة « لا تخرف .. نريد .. نريد دليلا .. ما هو ؟ » فيقول العمدة « الزكيبة .. والرجعة » الرجل النيابة يهز رأسه لا أفهم والعمدة يقترب منـــه في هدوء لا يرجع هذه الرجعة .. داخل هذه الزكيبة .. غير الذين يشتغلون سياسا لبغلة التفتيش » . والرجل النيابة يخبط رجله في الأرض :

ـ ماذا تقصد بهذا الكلام يا عمدة ؟

ـ هذا ما يحدث .. أنا الذى يقوم بالاختيار .. نجمع شبان البلد ونفرزهم بالفرازة ونختار منهم واحدا .. ثم نرسله .. بعد سنة .. سنتين .. ثلاث يرجع هذه الرجعة السوداء .. ولابد ان يكون بلا رأس .

ـ وكيف تعرفون أن الذى راح هو الذى عاد ؟

ـ كثرة الحزن تعلم البكاء يابيه .. الزكيبة تصل من هنا .. و .. يا دوب نخلص من دفنها .. ويجيئنا الأمر .. نسيت .. في العادة .. تجيء السنيورة كما يسمونها هنا وهى زوجة الناظر وتشهد احتفالا بالطبل والزمر بمجـــرد وصولها يقام وتجمع له الأنفار من كل البقاع .. أنها المسئولة عن اسطبل التفتيش كله .. ولذا فهى تحب أن ترى بعينيها .. الواقع أنها تبدى اعجابها بهذا أو بذاك .. ولكننى فى انهاية أتحمل المسئولية وحدى اذا لم يعجبها الشخص الذى اختارته فأقوم أنا بالفرز بمعرفتى الخاصة لأنى أعرفهم جميعا أكثر منها .. اليوم يا بيه .. اختل الزمن .. جاء الطلب وجاءت الزكيبة فى لحظة واحدة .. وانى لا أدرى هل ؟

أشارك فى قيام الاحتفال أم فى تشييع الجنازة أم فى الاثنين معا وفى نفس ـ اللحظة ؟ ..

ـ لم توضح لى .. أى طلب تقصد ؟

ـ ما يجيئنا .. مطلوب سائس لبغلة التفتيش بمعرفتك يا عمـدة .

ـ فلم لم تسألوا عن السابقين ؟

ـ منذ سنوات لم نعد نسأل .

ـ لـــم ؟

ـ لأن الجواب واحد يا بيه .. لا يتغير أبدا : ضربته البغلة فى مكان حساس .. فمات ..

ـ اذن فأين جثته ؟

ـ فقدت .. هذا ما يقولون .. لكن الجثة كانت تجىء .. وتطلب الدفن ونتعرف عليها رغم أنها بلا رأس ..

ـ الا يذهب أحد الى التفتيش ليرى .. ؟

ـ لا أحد هنا يعرف مكان التفتيش .. أنا نفسى لا أعرفه .. الناظر يجىء الى الكردى ويتسلم الشخص منى .. و ..

وقالت بســـيونية :

ـ « بغلة .. ما .. عندها .. أصل .. آخر المتعة ترفسه برجلها » . ثم أنها طوحت رأسها شمالا ويمينا وصرخت ، ياكبدى وسارت تضرب رأسها فى الأرض بشدة وتقول : « يا كبدى » حتى سال الدم من رأسها وأغرق وجهها .. وقال الرجل النيابة : « لابد

من أخذ أقوالها » وانحنى العمدة عليها وقال : « كلمى سعادة البيه يا بسيونية ٠٠ قولى له كيف تعرفت على ابنك » ٠٠ وبسيونية لم تتكلم ، انما تربعت وشدت الزكيبة على ركبتها وظلت هكذا برهة ثم انكفأت وسحب الرجل النيابة نفسه ومضى فتبعه كثير من الواقفين ٠٠ لكنه استدار ، وأمر أن يبقى فى حراسة بسيونية والزكيبة ٠٠ خفيران ٠٠



الفصل الثالث

« معاطى » لا يريد أن يتكلم

فى الموضوع ••• ولكن ••

الناس يسألوننى عن السبب •• والله ما أعرف السبب • تعبت من قوله : لا أعرف حرمت على نفسى الغناء فى الأفراح كما حرمت الرقص ولعب الحطب •• انكسرت والله نفسى والناس هم السبب ان غنيت حتى تطوحوا من الاعجاب قالوا : وهم يتحسرون على « ما خلاص •• ضاع تعبك يا معاطى بل ضاعت الدنيا من يديك فعلام ترقص الآن وتلعب ؟ » وكأننى لم أكن أغنى وألعب الحطب وأرقص الا من أجل عيون السنيورة • والسنيورة اختارت حمارا •• فما الذى يمنعنى من الغناء طالما أننى لازلت أعشق السنيورة ؟ لكن من يقرأ ومن يسمع ؟ اننى صريح أتمنى أن تختارنى السنيورة أنتم أيضا صرحاء وتعرفون كل شىء • لا تجعلوننا نفسر أكثر من هذا ولا داعى للاحراج •• أنتم جميعا كنتم ولازلتم — تتمنون أن تختاركم السنيورة •• حتى « أبو خليفة » زوج أختى •• الرجل الذى عنده بنات للزواج • يقولون اننى لما رقصت ولعبت الحطب أمامها كنت أحسن من رقص ولعب • وكنت — بشهادتهم — أكثر الشبان شبابا ورجولة • ومن الحق أن السنيورة اختارتنى نعم اختارتنى أنا من بينهم جميعا • أعرف هذا ويعرفه الناس

كلهم ٠٠ ولقد ظللت طول الليل أسأل وأطقس ، وجئت برأس كبيرة من أهل الكردى ووسطته لدى السيد قاقا ، وفى نفس الليلة جاءنى وأبلغنى أن الأمور عال العال وأن السنيورة سألت عنى مرتين ٠ فى المرة الأولى حين لعبت الحطب مالت على الباشخولى وقالت له « اسمه ايه الولد ده » فقال لها عن اسمى ٠ وفى المرة الثانية حين رقصت مالت على الناظر وقالت « اسمه ايه بتقول » فقال لها أيضا ٠ أليس هذا هو الاختيار ؟ والرأس الكبيرة التى وسطتها تقول ان خفاجة نزل من السراية خصيصا ليجمع أخبارا عنى أليس هذا هو الاختيار ؟ أما ما حدث بعد ذلك فمعروف للجميع ٠ مسألة أن العمدة يختار على مزاجه مسألة لا أحب أن أتكلم فيها ٠ يكفى أن السنيورة اختارتنى ٠ يومها وصلت الى دوار العمدة فى الصباح ٠ لم أجد أحدا من شبان البلد لم يكن هناك غير مجموعة من العجائز ٠٠ أمثال « أبو خليفة » اندهشت تخيلت أن الفرز انتهى من صبيحة ربنا ٠ وكان فى نيتى الا أسأل ٠ فمعروف للجميع أننى خلاص أختيرت ٠٠ غير أننى وقفت الى بعيد أحاول معرفة ماذا تم فى الأمر ٠ والله كنت قبل خروجى من الدار قد نبهت على أمى بعدم الصوات وعلى أخوتى بعدم دق الطبل أو اطلاق الزغاريد وعلى أصدقائى بعدم تفريق الشربات ٠ ليس لاننى أردت السفر دون شوشرة ، وانما المسألة غير هذه المسألة ان ابن بسيونية كان رحمه الله من أعز أصدقائى والمسألة ٠٠ أن تفريق الشربات والزغاريد ودق الطبل ٠٠ يعنى أننا فرحنا ٠٠ ويطلب أن يجىء الناس ليباركوا انما لا ٠٠ أن اختيارى عملية فى محلها فهل تزغرد النخلة حين تطرح بلحـــا ؟

٠٠ تلكأت عند دوار العمدة كانت هنـــاك شوشرة كبيرة وسمعت كلاما كثيرا ، ولصقت بدماغى كلمات كثيرة « يا سبب سعده » « يا فرحة أهله » ايش « حايكفيه » « يا حرقة أمه عليه »

فقلت أنهم لابد يتحدثون عنى أنا ·· وبينما كنت أرفع جلبابى السكروته وأتهيأ للمرور أمامهم كأننى ذاهب الى الحقل أو الى مشوار وكأننى لم أسمع ما يقولون رآنى أحد العجائز وكان متمطرقا على مصطبة أمام الدوار فقال بتشف احرق قلبى : « أيوه يا عم ·· محمود قنديل ·· هو الذى كان يجب أن يفوز بها » فتسمرت فى مكانى وقال عجوز آخر بجانبه « لقد بعثوا له من يجىء به من عزبة الطوال فهو لم يعلم بالخبر بعد وقد تم اختياره وهو بعيد عن البلد » الدم غلى فى عروقى · الحق اننى ظننت أنهم يغيظوننى ومع هذا لم أجد ما أفعله فتصنعت أننى نسيت شيئا واستدرت فجأة عائدا ولكن دون أن أنظر اليهم · هنا قال واحد من الشبان الجالسين مع العجائز محمد بن عبادة « والله ان هذا لشىء يفقع المرارة ·· وماذا فى محمود بن قنديل حتى يختارونه لعمل كهذا ·· أنه خرع وطرى ·· وحليوه أكثر من اللازم · هل تطلب البغلة رجلا أم كف حلاوة ؟ ·· « وصاح عجوز يجلس بعيـدا » ليس لنا دعوة بهذه المسائل يا ولد ·· اسكت ·· مالك أنت وهذا ؟ وكف الجميع عن الكلام · أما أنا فقد انطلقت أجرى نحو ترعة خلاف ، وخلعت ملابسى وقذفت نفسى فيها وخيل الى أن ماء الترعة ليس باردا ·· بالقدر الذى يريحنى ··

***

تحت شجرة التوت الكبيرة صحوت من النوم وكنا فى ساعة العصارى · كنت كأننى نمت حولا كاملا · واستغربت : كيف صحوت ؟ مع اننى حين القيت بنفسى تحت الشجرة كنت أتمنى ألا أصحوا أبدا · ودخل ·· محمود بن قنديل فى دماغى ولم يشأ الخروج منه ·· « محمود بن قنديل » ذلك الصبى النحيف ؟ · أننى غير معجب به ولا بمنظره رغم أنه يخشى بأسى ويحترمنى · أطيق العمى ولا أطيقه بوجهه المسحوب فى نعومة كوجه فتاة محجبة

وجلبابه السكروته الذى ورثه عن خاله ابن الليل القديم ، وقصره الخياط على قده ، اللاسه التى اشترتها له أمه بثلاث كيلات من القمح ، الشبشب العمولة يطرقع فى كعبيه وهو يمشى مثل عروسه فى الصباحية ما يغيظنى فيه أنه يصدق الاشاعات التى يقوم هو بنفسه بصنعها حول نفسه . المجنون الأهبل يصدق أنه فعلا يخاوى جنية وما أدراك ما الجنية .. « اختارتنى أنا وما ذنبى وعموما لا أحب أن أتكلم فى هذا السر والا خنت العهد وينقسم وسطى فى الحال » .. على فكرة أنا أحبها كلام فى سرك يافلان أحذر أن تقوله لأحد نعم أنا لا أحبها كثيرا لأنها تمنعنى عن أصحابى ومن أشياء كثيرة لا تعجبها فى هذه الحياة » « اسمحولى الليلة يا اخوان أنا الليلة ممنوع من شرب الجوزة ، نعم جاءنى الأمر بذلك فعلا فلا تغضبوا على ان كنتم لا تريدون أن أسخط قردا » .. « آه .. لقد تذكرت السلام عليكم .. ربنا يستر ماذا أقول يارب ماذا أقول .. أن لم ترونى بعد ذلك لمدة كبيرة فاعلموا أننى أمضى فترة العقاب فى حضنها فى مكان لا أعرف عنه شيئا .. « ايه يا أبا حنفى .. لقد عدت فهل حظيت بالرضاء ؟ » .. لا لا ملعون أبا الكل كليلة . لقد هربت ملعون أبا الكل كليلة : « هل ــ تستعبدنى بنت جهنم الحمراء ؟ » .

أقسمت بالطلاق من ذراعى كما تقول النسوان ، ومن حياتى كما يقول الفتوات ان هذا المفعوص يضحك على ذقوننا جميعا . أننا لا نحرجه وهو يصدق أننا نصدقه ويصدق نفسه حين يقول أى كلام . كان الأولى به أن يذهب الى الخانكة والحقيقة أننا جميعا ننتظرها له : أقسمت بالطلاق من حياتى أن الدنيا نفسها خانكة حتى تأخذ هذا الولد وتضعه على حجرها : أخشى أن يــكون هو العاقل الوحيد فينا . كل واحد فى البلد يعرف أن محمود بن قنديل عنده لطشة فى عقله و .. يالمصيبة ل .. ل .. لقد تركناه يفعل ما يهوى .. فهو أهبل .. وكيف نحاسب الأهبل كم من مرة

رأيناه يقرص البنات فى أفخاذهن ثم نضحك بدلا من أن نناوله بالكف على صدغه الله أعلم ماذا فعل فى الخفاء ٠٠ بعيدا عن أعيننـــا ٠٠

انما لا ، المسألة فيها سبب آخر العمدة رتب لهذه الفعلة منذ سنوات أفلا تذكرون الرجال الثلاثة أو الأربعة الذين وقع الاختيار عليهم فى الســـنوات الأخيرة كان بينهم وبين الرجولة والجدعنة مسافات طويلة • العمدة يقول ان التفتيش أوصاه ـ بشرط الحلاوة فى الشخص المطلوب ، و ٠٠ « ضرورى يا أهالى البلد أن انتقى ولدا حلوا ، صحيح التفتيش يطلب رجلا عفيا يتحمل بغلته الشرسة ولكن لا تنسوا أنه ٠٠ سيكون دائما فى وجه السنيورة ، لأن البغلة فى منزل الناظر والناظر هو زوج السنيورة طبعا طبعا لابد أن يكون الولد أحلى من الســـابق أليس حواليكم شبان أحلى من هذا ؟ لاحظوا أنهم يصرحون لى الاختيار من أى بلد مجاورة انما أنا طبعا أرى أن بلدى أولى بالخدمة من غيرها فلأجل خاطرى ساعدونى على خدمتكم لما أطلب منكم شيئا أكثر من أن تسكتوا ـ ولو أننى أنتظر منكم شيئا غير هذا ٠٠ أتمنى مثلا أن يجىء واحد من الشـــبان ويقول لى : لا داعى للاجتماعات ياعمدة ، دع الناس فى شغلهم ولا داعى لأن ينادى المنادى ويتعطل الرجال كلهم طول النهار لكى يحضروا الفرز ٠٠ لا تتصوروا مقدار سعادتى يوم أسمع مثل هذه العبارة من أحد منكم ، على الأقل سأعرف ان بلدى قد تنورت بحق وسيفتح الله عليها ، أليست تمنحنى الثقة فى أن اختار بدون شوشرة أو وجع للدماغ فى الفرز ؟ ٠٠ وماذا فى هذا ؟ ٠٠ اننى أعرف البلد فردا فردا وخصوصا ـ شبانها ٠٠ انهم أغزاء عندى ، تعودت منذ سنين ان أظل أراقبهم من طفولتهم حتى صباهم وأكاد من حرصى عليهم أتولى اطعامهـم بنفسى والعناية بهـم حتى تمتلىء أجسادهم بالحياة والحلاوة ٠٠ طبعا من واجبى أن أحمل همهم من صغرهم فأنا أريـد أن يجىء اليوم الذى يجعلنى ـ بمجرد تلقى

الاشارة ـ أفتح بابا ما ،واستخرج الولد فى الحال . وأقول له :. اذهب الى النعيم فقد خلقت له وما أنا سوى سبب هيأته لك السماء لكن متى .. متى تحققوا لى هذه الأمنية ؟ .

.. أصابعى كلها بل جسدى كله وضعته فى الشق من هذا العمدة .. وطرية الذين ماتوا لى انك يا عمدة رجل ملعب من طقطق لسلامو عليكو .. انه يحيرنى مثلما حيرنى محمود بن قنديل . احلف على الماء يجمد ان محمود بن قنديل لم يكن عبيطا ولا مجنونا .. أنا لا يدخل دماغى كلام العمدة ومسألة الحلاوة هذه من أساسها لا تركب ذمتى بمليم أحمر العمدة يختار لغرض فى نفسه ومحمود بن قنديل له صلة أكيدة بهذا الغرض الذى فى نفس العمدة ملعون أباه وأبا السنيورة والعمدة والتفتيش كله .. انما تعالى هنا ياولد . سيقول الناس كلهم أن الغيرة قتلتك . غيره ؟ .. أنا أغار من ولد كهذا ؟ اننى حزين من أجل السنيورة فقط ، وأغتاظ لأن البغلة لن تحتمل طرواته وسوف ترفسه فى محاشمه من أول طلعة ، مالى أنا ولهذا . سوف أذهب اليوم وأبارك له كأى واحد من أصحابه سأكون أول الراقصين وآخرهم وسوف لاتكون القعدة حلوة الا بى .

***

الشارع كله ساكت .. يخيل لى أن جميع سكانه تركوه وراحوا يدبرون فى الخفاء مؤامرة لا يمكن أن يكون هذا السكوت سكوتا بحق ، وهذا الشارع بالذات لا يسكت أبدا أنه الشارع الوحيد فى البلد يشغى بالخلق طول الليل والنهار أنه كما نعلم شارع رئيسى من شوارع الرحبة .. والرحبة طبعا هى البرحاية التى تتقابل عندها كل شوارع البلد وحواريها أى أن الرحبة فى وسط البلد هى قلب البلد .. وليست الشوارع والحوارى وحدها

نتقابل في الرحبة دعونا نحب الصراحة مرة ، وخصوصا الآن ان البلد كلها فى خطر ان لم تعرفوا بعد · ان محمود بن قنديل أول واحد يطلع من الرحبة وتعلو مراتبه ·· أنتم غافلون · من غد سيكون أجدع من فيكم مطية لأقل واحد فى الرحبة وما أدراكم ما أهل الرحبة هل أتكلم أم أنه لا داعى ؟ عقلى يقول لى انكم دائما لا تحبون التفكير فى ــ « مسألة الرحبة » · انها فى نظركم سوق قائم على زبانه ، والشىء الذى لا يرد الى السوق يوم السوق لسبب من الأسباب اسأل عنه فى الرحبة أى شىء يخطر على البال تجده فيها ، كل الأشياء لها باعة ولها مشترون وكل الأسعار لا تطلع الا من الرحبة وكل ما يضيع بين الناس أو يسرق منهم قمحا أو قطنا أو محراثا ناقا أو ماشية أو حتى أطفالا صغارا يذهب بقدرة قادر الى الرحبــة فتبيعه لصاحبــه من جديد ·· هكذا عينى عينك لا احم ولا دستور ··

الآن لا أقول مثلما تقولون دائما أنتم تبتسمون فى عبط : آه من الرحبة ونوادر الرحبة · انما أقول : آه منكم أنتم لم يشغلكم سوى أن صاحب السعد هذه المرة هو محمود بن قنديل · لم تعرفوا طبعا ما الذى سيحدث لكم بسبب ذلك ·· من يدرى لعلكم تنسون هذا بمزاجكم ·· وهنا يقع الكلام ·· وما عندى من كلام هو بصراحة وبكل صراحة أن المشى فى الرحبة يحتاج من المرء الى عدم التفكير فى حياته أن كان بائعا سريحا حلاوة لسان وانكسار أن كان من أهل البلد العاديين وعلانية وشفاعة ــ بالنبى ان كان مشتريا ·· آه ·· منكم ياخلق أتراكم فى حاجة الى أن أذكركم بأن هذه الرحبة التى هى فى قلبكم يسكنها نوع غريب من الناس طردوا من كل أسواق الدنيا فنصبوا لأنفسهم سوقا ثابتا فى بلدنا وأصبح ملكهم بوضع اليد وعاشوا بيننا بالذراع والاجرام كل ما هنالك انهم لا يفعلون ما نفعل ولا نفعل ما يفعلون لا يعرفون طبعنا ولا نعــرف

طبعهم كل شيء عندهم « وماله مايضرش » لا أحد منهم يعرف أباه اذا ما وضع بجانب المليم لا يعرقون الضرب بالأيدى ساعة العراك فاياديهم دائما سواطير وسكاكين وبلط وعامود للشمسية وصنج الموازين وحديد القبانى ورمانتـــه • الرحبة تنشر فى بلدنا فسقا وفسادا وعما قريب ستخضع بلدنا للرحبة • أنا مالى • جئت لأهنىء الأخ محمود وكفى •



الفصل الرابع

« حفناوى » خادم التور

يحكى : كيف ٠٠ وكيف ٠٠ وكيف

كنا نجلس فى مندرة محمود بن قنديل ٠ حينمـــا سمعنا صواتا ٠٠ وقلت فى نفسى « خير يارب » ساعة ما كنا فى بيت العمدة مساء الأمس وأنا خائف فقد أخبرنا العمدة أننا يجب أن نجعل بالنا من أنفسنا ونضع عنينا فى وسط راسنا و ٠٠ الحكاية لن تمر بسلام ٠٠ وانتم تعرفون أن السنيورة اختارت ناسا غير محمود ٠٠ ولكنى لست عبيطا حتى أوافق عليهم ٠٠ طول عمرى أحب الجدع ـ يعنى محمود ٠٠ وأريـد أن أخدمه ٠٠ فالحمد لله جاءت الفرحة ٠٠ والحق انه ابن حلال مصفى « ثم نظر ناحيتى فنظرت اليه فعاد ونظر فى قلب نظرتى وظل هكذا مدة طويلة ونظر الى محمود قائلا « الولد ده بيبص لى كده ليه » فابسسم محموددد وقال له انى على نياتى ولا أقصـد أى حاجة ٠٠ ألا تعرفه ؟ فقال العمدة كأنه لم يرنى من قبل أنه حفناوى على ما أظن الذى يسرح بالثور عندك ٠ فوافق محمود برأسه ثم قال أننى أيضـــا راجل جدع وأخدمه و : « ان شاء الله سأترك له الثور يشغله ويحاسب والدتى أو لا يحاسبها فهو حر ٠٠ نعم سأوصى ببقائه فى خدمة الثور طالما أنا حى » فضحك العمدة مقدما ثم قال « ٠٠ لا وأنت الصادق ٠٠

طالما ان الثــور حى » وضحك محمود كما لم يضحك فى حياته من قبل ٠٠ وعاد العمدة يواصل النظر الى ومنظره يقول انه متشكك فى العبد الفقير ثم مال على أذن محمود وهمس كعادته بصوت عال كأن العمودية لا شىء غير صوت عال : هوا ٠٠ الأخ ده ٠٠ يعرف ٠٠ كل حاجة عن ٠٠ شــغلك و » ٠ ابتسم محمود وقال : « لالالا اطمئن أنه لا يعرف أى حاجة عن الموضوع الذى فى بالك ٠٠ حتى الأمانة التى بعثتها لك معه لا يعرف ما هى ٠٠ وعموما لا تنشغل به » هىء ٠٠ ان كان محمود يدعى العبط على الهبالة والعمدة يدعى البراءة فأنا أيضا يجب أن أكون حمارا كبيرا من أجل المصلحة فقط ماذا يفيدنى اذا عرف العمدة أو غيره أن الأمانة التى أعطيتها له هى الفلوس التى طلبها من محمود مقابل اختيــاره سائســا لبغلة التفتيش ؟ انما فى الغد سيسافر محمود وسأبقى أنا والثور وأم محمود ولن ينفعنى أحـــد ٠٠ وعلى حس محمود ســأعيش فى الدنيا عيشة راضية ٠٠٠ من طلعة النهار لم ألامس الأرض فكان على أن أسحب الركوبة وأجرى الى عزبة الطوال أنادى محمودا كما اتفقنا مع العمدة ــ العبيط لا يعرف أننى أعرف هذه أيضا وكان محمود قد راح الى عزبة الطوال فور خروجه من بيت العمدة فى عز الليل فى جنح الظلام فى ملابس غير ملابسه لا لشىء الا لكى ألحق به فى اليوم التالى وانقل له الخبر وادعوه للمجىء ٠٠ كثير من الحمير أمثاله وأمثال العمدة وأقارب عزبة الطوال لا يعرفون أننى أنا الذى ربيت محمودا هكذا ــ وعلمته كيف يكون العبط على الهبالة مسألة منجية من كثير من المخاطر ــ أنا حفناوى ربيت محمودا مثلما ربيت توره ٠٠ ونفع الاثنان علمته كيف يلف على العمدة ويأخذه فى عبه ٠٠ ولا أدرى ما الذى سيفعله بدونى حين ، يصبح وحده أمام السنيورة والبغلة ٠ ساعة كنا عائدين من العزبة كان يريد أن يخترق السكة الى الدار ولكننى صممت على أن نمشى من وسط البلد حتى يعرف الناس كلهم انه جىء به الآن وانه لم يكن يعرف شيئا من قبل عن مسألة الاختيار ٠٠

.. من ساعة ما وصلنـــا وأنا لم ألقط النفس .. وقلبي منقبض لا أعرف لماذا ولولا انني أستطيع أن أمسـك نفسي مدة طويلة لوقعت من يدي صينية الشاي مائة مرة ولو قعت أنا نفسي مئات المرات ..

ارتفع الصوات أكثر وأكثر .. وارتفعت معه « غاغة » كبيرة توقف الكلام في المندرة ـ و « طرطق » الجميع آذانهم نحو الشبابيك وبدأ بعض الموجودين يخرجون ورأيت محمودا يتلكأ في الخروج فتلكأت معه أنا الآخر حتى لم يعد في المندرة سوانا رأيته في حالة لا تسر قلت لعلهـــا الفرحـة .. لكنه تمتم « و .. وبعدها لك يا فكيهة .. يومك لن يفوت على خير أعرف انك مجنونة وأخشى أن يكون عقلك قد ذهب » فكيهة ؟ هذه مصيبة جديدة الحق انها مصيبة قديمة لم أكن قد فكرت لها في حل كيف نسيتها ؟ ضرب محمـود الأرض بقـدمه ومشي يسب ديك الحريم وما يجيء من جرائهن .. فمشيت وراءه استعيذ بالله مما في علم الغيب ..

***

اندفع محمود .. قطع الزقاق الضيق في لمح البصر فصار في قلب الرحبة .. لم يكن هناك مكان لنسمة هواء ـ الرحبة مزدحمه بالناس وكلهم رحبويون على الآخر .. الجلاليب الملطخة بالزيت والعرق ، ضيقة الأكمام قصيرة الأطواق ، الكلام الذى يبيعون به ويشترون لسانهم المعووج دون أهل البلد الأصليين ، كلامهم واحد في كل حاجة ، كلام البيع هو نفس الكلام الذى يطلبون به النوم مع زوجاتهم ويتشاتمون به ويتعاركون عليهم لعنة الله أنا حفناوى الذى ولدتني أمي في حقل البوص في الصعيد وعشت مع الذئاب ومع الثعالب وأولاد الليل لم أجد أحدا في وساخة الرحبويين وحتى الآن لا أعرف كيف أعيش مع أهل الرحبة .. وكنت في النهـاية

أقول ، رب ضـارة نافعة فلولا وجود أهل الرحبة فى وسط هذه البلدة لما أصبح أهل البلدة أنفسهم مؤدبين هكذا . فالعراك اذا نشب فجاة بين اثنين أو أكثر من أهل البلدة تفضه فى الحال كلمة واحدة يقولها رجل فائت يقول : « احنا فى الرحبة ولا ايه » وهنا لا يكف العراك فحسب بل يكتشف كل من الطرفين المتعـاركين ـ فجأة ـ أصله وتربيته التى هى على الغالى . أما فى داخل الدور فان شـخط رجل فى زوجته بكلمة قبيحة فالزوجة تنظر اليه فى دهشة وتمصمص شفتيها قائلة : « لعلنا فى الرحبة » فينكس الرجل رأسه فى خجل ولا يمحو شعوره بالوضاعة الا أن يبقى طول الليل يتودد الى زوجته ويداعب أطفاله على غير العادة .. اننى فى الأصل من هذه البلد ولكننى فى أوقات كثيرة أضيق بالناس وأكاد أصيح اننا جميعا رحبويين مهما تبرأنا من سلو الرحبويين وألسنتهم .

ما أن ظهر محمود حى سـمعنا كلاما خنفشـاريا من كلامهم الفارغ :

ـ هى غلطـانة .

ـ ما كان هناك داع للفضيحة ..

ـ فضيحة ؟ لماذا ؟ .. هل كان هناك شىء مختبىء ؟

ـ مهما كان فلا يصح .

ـ يصـح أو لا يصـح مالك انت ؟ .. أتجعل من نفسـك أبو كاتو .. ؟

ـ روقوا يا جماعة . صلوا على النبى .

ـ لا نبى ولا ولى .. لا تدوشنوا دماغنا ..

وقفت أدقق فى الوجوه المحيطة بنا بينما ندفع الأجســـاد لنمر فاذا بين الوجـوه وجوه ليست من أهل الرحبـــة ٠٠ وكان معاطى يسير خلفنا واذا به يتوقف ٠٠ أيه يا معاطى ؟ ٠٠ فقال ان الخلاف وقع بين البلد والرحبـة ، وصفق بيديه قائلا فى تريقة « يا هادى يا دليل ٠٠ يا هادى يا دليل ٠٠ ليلتنا ورد باذن الله » ٠ قلت له : « امشى يا معاطى ولا دخل لنا بأحد ٠٠ دع الليلة تفوت على خير » فمشى ولسانه يمشى بجانبه :

ــ حكاية يصح ولا يصح هى بيت القصيد ٠٠ طول عمرنا نقول لا يصح ٠٠ وتقول الرحبة يصح ٠٠ لكن الآن ٠٠ مادامت الرحبة تقول يصـــح ٠٠ فخلاص ٠٠ يصـــح على رأسـنا ورأس أبائنا ٠٠ من الليلة ستكون الرحبة هى صاحبة الكلمة فى البلد ٠

ارتفع صوت لم أعرف صاحبه :

ــ أتعيب فى حق الرحبة ؟

استدار اليه معاطى :

ــ أرنى نفسك يا من تتكلم ٠

ارتفع صوت آخر :

ــ دعك منه يا معاطى ٠٠ انه مخلوف الصفطاوى وانت تعرفه ٠
وضحك معاطى قائلا :

ــ أهلا سى مخلوف ٠٠ صرت أنت الآخر تتكلم ٠

مخلوف أضعف واحد فى الرحبة وأعلاهم صـــوتا ، عمره ما تعارك الا بالصوت فحسب أما الآن فقد رأيته يزيح الناس من

حواليه ويندفع نحو معاطى يريد أن يضرب ويسيح الدم . أعرف أن معاطى يمزح كعادته فربما كان هو الوحيد الذى تسمح له الرحبة أن يمزح معها وبنفس كلامها والعادة أن يضحكوا لأنه قلدهم ببراعة ولأنه ولد حلو اللسان والطبع ويرقص في كل الأفراح سحبته من يده لأقصر الشر .ولكن أحدا من أهل الرحبة لم يسحب مخلوفا انما تركوه يتدافع وراءنا والى أن صرنا بعيدا عن الزحمة كان يشتم ويسب .. سحب معاطى نفسه من يدى ـ ووقفه يبتسم ولما لم يتحرك أحد ويقول « عيب يا مخلوف اختشى » أمسك معاطى ذراع مخلوف ولواه بسرعة وطوحه على الأرض فنزل كما الجوال ساكتا وبقى معاطى واقفا والغضب يرعشه نهض مخلوف من الأرض يلهث كالكلب السعران ودب يده فى جيبه وأخرج مطواة وفتحها وهجم بها على معاطى لكن معاطى ـ كما يرقص بالضبط ـ رجع بسرعة وشنكل مخلوف وطوح به فى الأرض مرة ثانية فانغرزت السكين فى الأرض فداس معاطى فوقها بقدمه وطوح الأخرى فى وجه مخلوف كأنه يضرب كلبا شريدا .. هنا صرخ مخلوف كما النسوان وقال « أسنانى واذا بضحكة ترتفع حتى من فمى ومن فم معاطى فمخلوف ليس فى فمه سنة واحدة . وبهذه الضحكة زال الخطر وبقيت فى الجو كلمات « قم يا حلو قم » « قم يا فتوة يا أبو سكينة » على ان شقيق مخلوف ظهر فجأة ممسكا بنبوت » راح يزعق ويصرخ :

ـ أيجىء ليضربه هنا .. أيجىء ليضربه هنا ؟

ومن خلفه أصوات رحبوية عالية :

ـ لابد أن يخرج من هنا الى القبر ..

ـ يخرج مفتتا .. نعمله كفته ..

ـ أصلكم نسوان حتى تتركوه يضربه ..

ـ دعوه لى وأنا أبصق فى مؤخرته ..

اندفع اليـه معاطى كما الأســد ٠٠ خرجت يده من فتحة جلبــابه الجانبية ممســكة بطبنجة كبيرة يعرف الجميع أن أباه أحضرها من الحرب العالمية بعد أن قتل ضابطا كبيرا وتطايرت في السماء طلقات الرصاص ٠ دب الفزع في الجميع وانهارت الأجساد على الأرض يمســح الدم عن فمه ويجعر باكيـا ومعاطى ـ يجعر فوق بعضـها واقعـة واتسعت الأرض تحت معاطى ومخلوف ممدد شاتما ٠٠ :

لا أحد يملأ عيونكم يا واطئين يا كلاب ؟ ٠٠ وشرف أمى لأربينكم واحدا واحدا هاانذا أريد أن أروح الليلة في داهية ٠٠ سأصور هنا عشرين قتيلا ٠٠٠

وصاروا يبادلونه الجعير وصوتهم يعلو وينخفض ويختفى في الحوارى ٠٠ وفى هدوء شديد تبعنا معاطى الى دار فكيهة ٠٠٠ ثم اختفى ٠

***

خرمت في حارة الفرارجي ودخلت دار الفرارجي نفسه ٠٠ رأيت محمود ينهال ضربا على فكيهة كأى رحبوى أصيل ويقول : « هس اخرسى يا لبؤة » وامرأة عجوز تجلس في ركن القاعة وتقول مولولة « الفضيحة ٠٠ الفضيحة ٠٠ منك لله يا مقصوفة الرقبة » وقالت امرأة رحبوية لماذا يضربها ٠٠ أله عليها ضرب ؟ وقالت أخرى طبعا انه خطيبها وسوف يتركها بحسرتها ٠ وصاح محمود في وجه فكيهة « لا أحد يبكى على ٠٠ انت خطيبتى كما أنت ، وملت على محمود وهمست في أذنه « سمعت انها حملت منك في الحرام فشف لك حلا من الآن وصــاح محمود كأنه لم يسمعنى « قبـل مغادرتى للبلد سأعقد عليك ٠٠ خلاص انتهت المشكلة يا أسيادنا ٠٠

فارقونا اذن ليذهب كل منكم الى داره قبل أن أهزئه » واندفع يشق لنفسه طريقا ٠٠ ومضى الجميع خلفه مثل ظله ٠

رجع الذين بعثهم محمـود الى دوار العمدة وقالوا ان الدوار ليس به أحـد وخمنوا أن العمدة وشـيخ البلد مشغولان بدفن الجثة وبتصريح الدفن والبحث عن بسيونيـة وعن مكان يغسلون فيه الجثة وفلوس لكفنها ومكان لدفنها فبسيونية فى الأصل ليس لهـا مقبرة وقلت أنا انه لم يكن من الواجب أن نرسـل للعمدة فالمفهوم اننا لا نعرف شيئا عن الأمر الا مجرد كلام وقال ابن خال محمود « سيجلس محمود معززا مكرما حتى يجيء الخفير ويطلبه » وقال ابن عم محمود « وهل الخفير من قيمته ؟ ٠٠ انه لا يتحرك من هنا الا بمجيء العمدة بذات نفسه » ٠ واذا بمعاطى عليـه اللعنة ـ موجود فى القعدة ثم لا تفوته « الواحدة » أبدا « لا وانت الصادق ٠٠ محمود لا ينبغى أن يتحرك من هنا الا اذا جاءته البغلة بنفسها » وفرقعت ضحكة كبيرة كان محمود أول من بدأها وآخر من أنهاها ثم نظر الى معاطى نظرة لها معنى وابتسم « والله لو عرفت قيمتى لجاءت ورجلها فوق رقبتها » فسحبه معاطى من أذنه بشارة من اصبعه ومال هامسا فى غبطة « ونأخذها لتستحم فى الترعة » ورجع محمود برأسه ساحبا ذقنه ٠ وهل هذه تستحم فى الترعة أيضا ؟ ٠ لابد أن لها حمام من الرخام المرمر ٠٠ وماء الترعـة لا ينفع ٠٠ ولا ماء الطلمبة » ورد معاطى « فعلا ٠٠ من المؤكد أنها تستحم باللبن ثم ان الرجال فوق المصطبة انكمشوا وغاصت رقابهم فىأكتافهم وضغطوا بأسنانهم وزاموا جميعا زومة قصيرة ثم سكتوا فى خجل ٠٠ ثم اندفعت العيون كلهـا تنظر الى محمود فى حقد فابتسم وبدا عليه أنه سـعيد بحقدهم واذا بعويل يدخـل المندرة قادما من حجرة الكرار ، عرفت انه صوت « نجية » أم محمود ٠٠ ارتبكنا جميعا ـ وانقلب وجه محمود ونظر الى معاطى مشـوحـ

برأسه نحو الداخل . فنهض معاطى واتجه الى حجرة الكرار وأنا وراءه . كانت (نجية) قد مزقت جلبابها الأسود وراحت تلطم خديها وتضرب الأرض بيديها وقدميها وتقول بصوت مبحوح :

ـ عوضى على الله ·· لن تهنـأ به عينى ثانيـة ·· منها لله البغلة ·· منها لله البغلة بئر وانفتح ولا يجد من يسده ·· أترينها أقسمت لتخلصن على شبان البلد ؟ ·· هل انتهت من شبان البلد واندارت علينا ؟

كانت كالنار المشتعلة لكن معاطى فى بعض الأوقات يكون أطول بالا منى وأحسن فى التفاهم مع أن حفنـاوى ابن الغربة المشهود له بالكلام الحكيم ·· وقف ينظر الى الوليـة ويبتسـم وانتظر حتى أفرغت الولية كل ما فى جوفها من بكاء وأسـندت صدغها على كفها وهنا اقترب منها وقال باسما :

ـ نعرف أن أبا حنفى سيد الجدعان ·· لسنا محتاجين لهذه الفضيحة لكى نعرف ·· على مهلك ·· على مهلك ··

ابتسمت الولية ولم تفلح كفها اليمنى فى مداراة الابتسامة .

يا لك من خطير يا معاطى . أنا نفسى كنت أحمل همها فكيف استطعت يا معاطى أن تسحب الابتسامة من جوف الصراخ وتكشف عن الفرح فى بطن الألم ·· تمددت الابتسامة حتى ملأت وجهها كله . فقال فى غبطة :

ـ نعم ·· ابتسمى يا نجية ·· فمن منا قدك اليوم ؟ هنيئا لك ·· من غد سوف تركبوننا وتطوحوا أرجلكم .

أدارت وجهها لتخفى سعادتها بل انها أقفلت حنكها بيدها لتمنع الضحك وقال معاطى وهو يدفعها بأطراف أصابعه :

ـ أقولك يا خـالة نجية ·· هل ستقبلين وساطتى ؟ ·· حين يبعثنى واحد من ـ البـلد يريد أن يشتغل أو حين تحتـاج البلد الى ماسورة تركبها فوق المصرف هل ستقبلين وساطتى ؟ · طبعا لابد ··

احمر وجه نجية وانزرد والضحكة المكتومة تتمرد وتنتفض فى خديها وهى تهز رأسها وتحاول أن تبدو حزينة كما كانت وشقاوة حلوة تتراقص على وجه معاطى ويؤكد لى ان هذا الولد لم يكن طفلا فى يوم ما انه ولد هكذا عجوز الملامح صبى الجسد حكيم القول :

ـ والله يظهر انك لن تجعلى لنا سعرا ·· أنا أعرف ·· ساعتها ستقولين لى من أنت ·· وتجلسين فوق البساط وترسلين لى من يقابلنى ويزحلقني ·· نعم أنا لست تائها عنكم ·· يا أهل الرحبة ·· لا غالى لكم ··

انفتح حنكها وتساقطت الضحكات وجاء من المندرة صوت كركرة الجوزة مصحوبا برائحة الميـاه المندلقة نحو شـفتى معاطى فامتدت أصابعه وتناولت البوصة وانضمت عليها شفتاه وراح صوت الجوزة يتراقص طربا فى الدار وسحب الدخان الأزرق تتكالب مندفعة لتسبح فى الفراغ بنشوة وحامل الجوزة يتمايل من كثرة الطرب ويطرقع بالماشة فى تنغيم حتى اذا ما زفر « الحجر » نفسه الأخير ضن به معاطى على الهواء واحتجزه فى أنفه وقال لنجية وهو يبتلع الدخان :

ـ أهذه ثياب ترتدينها فى ليلة كهذه ··

أخيرا نطقت بصوت خفيض قالت « لأنها سوداء ؟ هذا هو الواجب » قال متجاهلا قصدها « لأنها ممزقة وتكشف عن عريك »

نهضت الولية فى الحال متكورة على نفسها وانسلت خارجة وهنا طرقع معاطى بأصبعيه طالبـــا حجرا وفى الحال تأودت البوصة واستسلمت لشفتيه وراحت الجوزة تطلق أصـــواتا بهيجة والمندرة كلهـــا تتمايل وتقول : « يا سيدى يا سيدى » ثم تقول لمحمود « تعلم يا أبا حنفى ٠٠ لابد أن تكون هكذا قبل أن تراك السنيورة ٠٠ وبعد حجرين أو ثلاثة دخلت الى حجرة الكرار امرأة غريبة ترتدى جلبابا من الشيت الملون المزخرف بتصـــاوير صغيرة لأطفال عرايا ذوى أجنحة ثم انها تتعصب بمنديل من الحرير بأوية وفى معصميها تلمع الغوايش الذهب ٠ من تكون هذه اللبؤة التى تجىء وتجلس بجوار معاطى ؟ يا للفظاعة أيها العقلاء فى هذه الدار ان كنتم عقلاء حقا ؟ من منكم يصدق ان هذه اللبؤة التى زوقت نفسها فجأة وباتقان أزال ملامح السنة الخمسين من وجهها هى « نجية » أم محمود ؟ كان ما يدهشنى ان ما حدث يمكن أن يحدث وان الحزن يمكن أن يكون مجرد واجهة لسعادة غامرة وان السعادة يمكن أن تكون فظيعة الى حد يجعلها تتخفى فى أثواب من الحزن المرير وان الواحد يمكن أن يكون سعيدا حزينا فى نفس اللحظة هكذا ٠ لحظتها وقف معاطى خابطا ركبتيه بكفيه كأنه أنهى المهمة قائلا : « اتمسى بالخير يا خالة نجية » ثم تخطى الدهليز الى المندرة فقابله الجميع بالترحاب

أنا حفناوى الذى لطمته الحياة من بحرى الى قبلى والذى استطعت أن أعيش ذات عام فى بلدى هذه وفى دارنا وبين أهلى بشخصية رجل غريب أخنى عليه الدهر كما تقول الروايات ثم رضيت فى آخر المتمة من الحياة بالقليل وعملت خادم ثور فحولت الثور الى رأسمال ٠٠ أنا حفناوى الذى قطع السمكة وذيلها ٠٠ أشهد أننى لا أفهم شيئا أى شىء عن سر هذه السنيورة البغلة وكيف يندفع اليها الحزن فى موكب من الفرح العظيم وهذه اللبؤة التى لم أرها فى يـوم بهذه السعادة كنت منذ برهة متأكدا ان قلبها يتمزق وانها حزينة حزنا لا مثيل له : أشهد أيضا ان الجوزة لعبت دورا أثار البهجة فى القعدة

وأنساها الكثير وأخذ المساء يزحف والليل يطل علينا من شبابيك المندرة ويختلط وجهه بحديد الشباك وانقطع نفس الجوزة وتكومت فى الركن وبالت على نفسها وتكوم أيضا كثير من الأطفال وصرت أردد « كل سنة وانتم طيبون ٠٠ العقبى للأولاد ٠٠ شرفتم ٠٠ أهلا وسهلا ٠٠ نزوركم فى الأفراح ٠٠ السهرة أخذت حقها وكان الليل قد انهزم ساعة خروج الناس من المندرة وبقايا الدخان مثل ابيضاض الشعر فوق أذنى ٠

لم يعد باقيا فى المندرة سوى محمود ومعاطى ٠٠ والعبد لله ٠٠ وقال معاطى وهو يتعثر فى عدة الشاى والقلل :

ـ هيه ٠٠ ماذا تنوى أن تفعل يا أبا حنفى ؟

اعتدل محمود وتحفز « ما الذى تراه انت يا معاطى ؟ » وأشعل سيجارة مكن مع أنه أصـلا لا يشرب السجاير ٠٠ ثم أنه استغرق فى التفكير وكذلك فعل معاطى على انه أشعل سيجارة له وراح يتفرج على عود الكبريت وهو يحترق ثم رماه بغيظ قائلا : « ماذا ستفعل لو ان البغلة ضربتك فى محاشمك ؟ » قال محمود بخوف حقيقى « لا أعرف » ثم قال بعد برهـة : « هـل ٠٠ ستضربنى بالفعل ؟ » كور معاطى شفتيه ونفخ الدخان « تراك أحسن من من ؟ » الدماء تندلق فى وجه محمود وتسيح ملامحه على بعضها يرتعش صوته « يا معاطى ٠٠ ربما ٠٠ أتمكن من ارضائها شوفوا خبث معاطى » ماذا تفهم نفسك « وشوفوا ربكة محمود لا لا ٠٠ انت تعرف ٠٠ ان اننى ٠٠ » معاطى سلط عينيه فى عين الولد فارتبك أكثر فأكمل معاطى ما أحسست أن محمودا كان يريد قوله « انك عاشق الجنيه ٠٠ هه ٠٠ تريد قول هذا ؟ » محمود مثل الواقع فى بئر خفت عليه من الخجل الذى طفح على وجهه وجاءنى احساس باللذة اذ أتركه يرينى قدرته على التصرف « دعك من حكاية الجنيه

هذه ·· انما ·· انما ·· على كل حال لا يهم ·· هب ان الناس تقول هذا ·· ألسنة الناس أقلام الحق كما يقول الشيخ جمعة » · وأعجبني الولد تربيتي · لكن ان معاطى آه من معاطى الملعون خبط رأسه فى الحائط عدة خبطات وقال « ألم ندفنه سويا » نهض محمود « اسمع يا معاطى انك ·· لا تنكر انني ·· » وهز ذراعيه كمن يقول « انني رجل فحل » · على ان معاطى ميل رأسه بالموافقة فلم أسترح لموافقته ولمحت وراءها استهانة كبيرة قال محمود : « هذه امرأة تقلب على صدرها عشرات الفحول من ريف وحضر ·· فلابد أن يكونوا على الأقل ـ قد خفضوا ارتفاع اللهب فى حرائقها » ومرة أخرى أعجبني الولد · وقال معاطى « نعـم ولكن حرائقهـا تبتلع الرجال حتى الآن ·· انك ذاهب الى بئر لا ينفعه الا كل فارس صحيح الجسد » قال محمود « مستعد أثبت لك انني فى التمام » ضحك معاطى : « اثبت لها هى » وصمت ولم يجد محمود ردا ·· وبعد برهة قال معاطى « رأيى فيك ·· أو حتى رأى فكيهة ـ الله يلعنك يا معاطى ـ أو رأى الجنيه نفسها ـ ملعون ملعون ـ لم يعد له قيمة الآن ·· وعليك أن تتأكد من نفسك جيدا قبل أن تلقى بجسدك فى النار « قال محمود بخيبة أمل « تقصد ألقى بنفسى فى المصرف من الآن ؟ » رد معاطى دون أن يبتسم « لا ·· يمكن أن تأخذ معك الزكيبة المناسبة » وجلس محمود كأنه سلم « تستطيع أن تعلمنى كيف التصرف » وقال معاطى « أستطيع أن أقوم بالعملية نيابة عنك ولو مرة واحدة » وهنا وقف محمود وراح يصفق كفا على كف ويقول فى سخط ليس من الصعب أن تلمح ما وراءه من زهو « ما الحيلة وقد اختارتنى أنا ·· بحق الله ماذا أعجبها فى ·· الدنيا ملآنة بالشبان الأقوياء والوجهاء ·· فلماذا يا رب تفتح عينها على أنا بالذات ؟ » وسار يمصمص بشفتيه ولم أدر ان كان ما رأيته على وجهه سعادة أم رعبا فالحق انني لم أعد قادرا على تمييز السعادة من الرعب فى هذه المسألة · ومرت برهة ثم تقارب الرأسان والتحما

فى همس وهمهمة لمدة طويلة ضايقتنى ·· وصار صوت الهمس يعلو قليلا حتى صار صوتا مسموعا ولكنه ليس مفهوما لى ، خصوصا وانه كانت تتخلله ضحكات صبيانية عالية ·· .

. . . .

خرجنا الى الخلاء ضائقين ·· ثوران هائجان وخروف عجوز ما أن تركنا الشـارع وصرنا فى قلب الرحبة نفسها حتى برز من الظلام شبحان أسودان كل منهما يمسك نبوتا طويلا رأيت أحدهما وهو يقبل من ورائنا متجها الى رأس معاطى وصرخ صبى لا أدرى كيف كان يختبىء فى الظـلام : « خـــال معاطى · احذر النبوت أؤكد أن معاطى كان متوقعا شيئا من هذا · لقد طير نفســـه فى الهواء وهبط بعيدا رافعـا يده ودوت طلقـات الرصـاص متوالية سريعة انبطح الشبحان فوق الأرض وتناثر النبوتان فى الهـواء لا أدرى كيف · وصـــاح محمود « اعقل يا معاطى ·· معاطى » ولا أدرى كيف صـــار النبوتان فى يد معاطى ، ولا كيف أمطرت السماء كل هذه الرجال فى لمح البصر كلهم يريدون الهجوم على معاطى ، أنا صحيح أشتغل عند واحد من الرحبة ويهمنى أن يفتح له باب السعد ولكنى لا يمكن أن أطيق رزالة الرحبة ولا يرضينى أن يضربوا معاطى ويعلم الله أننى خائف خوف الجنون مما ستفعله الرحبة فى أهالى البلد بعد ذلك على حس محمود فأخذت أعطل زحف الناس وأشنكلهم بصنعة لطافة ·· ثم سمعت صرخات رحبـوية تقول : « آه يا دماغى » ثم رأيت معاطى يندفع جريا والجموع وراءه الى أن صار بعيدا عن الرحبة وفى زمام شارعه · وكنا نجرى كلنا وتستقبلنا طوائف أهل البلد من كل جهـاته لا ندرى كيف نبتوا فى الليل كأنهم جميعا كانوا يريدون للرحبة مقتلة من أول النهار أحلف أن البلد كلها كانت تتدفق من كل ناحية على شارع معاطى وكلهم مســلحون بالغـــدارات والنبابيت وغطيـان الحلل وحديد الشبابيك ·· وانحصرت الرحبة كلها بينهم · يارب ـ كيف تحولت

الأجساد التى كانت منذ برهة لا وجود لها الى أرواح شيطانية : نبابيت ترتفع وتهوى وتتقارع تصك الرؤوس وتدب الأقفية والرقاب رصاص يفرقع ويدوى ويبرق كالرعد صراخ يتزايد ويرتفع ٠٠ أين معاطى ؟ أين محمود ؟ خيل الى أن الغيطان البعيدة والأشجار والسواقى وكل شىء فى الكون يزأر ويبكى ويصرخ ويطقطق وتتكسر ضلوعه وتنهار جدرانه ٠ يا للمصيبة ٠ لم يعد فى الرحبة جدران ولا مبان فوق الأرض ٠٠ بل أجساد وجثث وأدمغة وناس تروح وتجىء وتدخل فى بعضها ضاربة ممزقة ممرغة وكنت قد وجدت نفسى واقفا هناك عند نخل كحكاية « مع أننى منذ قليل كنت فى قلب الرحبة ٠٠ وسألت نفسى : أين كان هذا القمر فى أول الليل ٠ ولماذا يحجب نفسه فى سعف النخيل كأنه لا علاقة له بهذه الجموع المتطاحنة طلبت من الله أن يطلق سراح القمر على هذا الهول الكبير لنرى النبابيت أن كانت تهبط على عدو أم حبيب ٠٠ ولكن القمر يبدو كالمتجسس ويبدو كأنه مشوى فى فرن من اللهب ٠٠ اللهب ؟ يا للمصيبة ٠٠ انه لهب حقيقى : « حريقة ٠٠ حريقة ٠٠ حريقة يا مسلمين » ٠٠ هكذا سمعت صوتا ولكن ٠٠ من سيطفى هذا الحريق الذى اشتعل فجأة ــ والرجال يتقاتلون بغيظ دفين ٠٠ خيل الى أن القيامة قامت ٠٠ وراحت ألسنة اللهب تتصاعد فى الجو مقبلة من كل ناحية تطقطق وتفرقع ٠٠ وكتل الدخان تزحف كليل يغزو أراضينا وبيوتنا والنبابيت لا تكف عن التطاحن ٠ وأظلمت الدنيا واختفى القمر ٠٠ ولم يعد واضحا فى الليل القارح سوى صراخ الأطفال ٠



الفصل الخامس

كيف تكلمت الزكيبة لشيخ البلد .. ولكنها لم تفصح

والله عال وتقول يا عمدة انك لم تقدر على فض الهوجة ؟ .. أصلك ابن حلال .. تتصورنى أهذر ؟ .. لا ورحمة أبيك وأنا لم أحلف بالمرحوم باطلا .. نعم .. الله يرحمه كان يرينا نور نجوم الظهر ويسقينا المر ومع ذلك .. لم يجد من يكرهه كان سكرة يا حضرة العمدة وأنت مثله بالضبط الخالق الناطق مثله لا تجد من يكرهك .. نعمة من الله طب يا أخى كنت .. ابعث لى بأى كلب من كلابك الكثيرة قل له اجر هوهو لك هوهوتين أمام بيت الحمار اللى اسمه شيخ البلد صحيح ان بيتى خارج البلد وفى وسط الحقول ولكن فركة كعب توصل القادم الى . أنا صحيح حمار كما قلت لك ولكن حموريتى عندها بعض الفهم وكنت سأعرف انك متورط فى مسألة .. ما علينا حدث خير .. لا تحرق دمك . أيه يعنى . مات خمسون وانجرح مائة ؟ .. فى داهية .. فداءك .. خمسون كلبا ومائة جحش والبلد لم تفرغ بعد واطلب تجد انهدمت الرحبة ؟ .. مصلحة .. كان حلما والحمد لله أن تحقق . أكل الحريق ثلاث أرباع البلد ومن بينها دوارك ؟ .. بسيطة . وعدل من الله أيضا البلد هدمت الرحبة والرحبة أحرقت البلد فما خسر

العادلون شيئا ثم ان الله كان رحيما بك اكتفى بحرق الدوار دون الدار .. لا عليك لا عليك .. قم اغسل وجهك وعفر هذه السيجارة و .. هل أخذت مزاج العصارى أم لا ؟ .. خذه ولا يهمك ملعون أبا الدنيـا .. معك المزاج أم لا ؟ أبعث لأشتريه لك ؟ .. الجيب واحد يا عمدة .. قل لى : ساعة أن جاءك الخبر بأن جمعا من كلاب الرحبة تنبح طول الليل وتعوى ألم يقل الخبر مع من كانت تنبح كلاب الرحبة ؟

أعرف أن كلاب الرحبة لا تكف عن النباح .. نعم كلاب أولاد كلاب لا تكف عن النباح فماذا نفعلها لها .. ؟ .. خلاص ملعون أباهم .. عفر عفر .. يا شبيخ .. لكن حين جاءك الخبر ألم يفكر فى المجىء مرة ثانية ليبلغك .. ان الكلاب صارت تتقاتل وتبقر بطون بشر ؟ .. هو الخبر الملعون لابد جاءك مرة واحدة فقط .. أظنك نمت بعدها لو كنت مكانك لنمت .. طبعا .. خبر يقول ان الكلاب تنبح مالى أنا فلتنبح خصوصا وأنها لم تكن فى يوم من الأيام الا نابحة .. أما الحرائق والصوات وما شاكل ذلك من هذه الدوشة فهى فى النوم تصير حلما غاية ما فيه انه مزعج أما أن أراه رؤية العين فهذا شىء أجارك الله .. الحمد لله ولطف على كل حال . لا تأكل نفسك .. عفر عفر .. تقول ان « محمود بن قنديل » مات هو الآخـر ؟ .. ياللكارثة .. وماذا سـتفعل مع التفتيش ؟ ..

لكن ، مصلحة . أنت لا شك .. استنفعت بقرشـين من المرحوم جزاء خدمتك له ، وقد مات . لعل السماء تريد ذلك لكى تستنفع لك بقرشين من واحد آخر ، وبهذا تبنى الدوار ويكون الله قد أخذ منك باليمين وأعطاك باليسار فما خسرنا شيئا وان كنـا تعلمنا أن الكلاب حين تنبح بهذا الشكل فلابد من فضها بالقوة .. كل ما هناك أن التفتيش لن يحاسبك على الرأس الآخر ، الرأس الجديد . ولكن لا ، انك يمكن ألا تقبل ، والظرف فى صفك : والله

ياتفتش أنا فى نكبة من جرائكم ٠٠ وقد اخترت رأسا وها أنتم ترون ما حدث فما ذنبى ، أن أوافيكم برأس جديد يستلزم اقامة فرح جديد تحضره السنيورة لتعاين ، ثم اقامة فرز لاختيار الأحسن ممن أوصت بهم ، وهذا طبعا جهد جديد يلزمه أجر جديد ٠٠ فى ظنى أنك تستطيع أن تقول هذا وحتما ستكسب ٠

أسمع ، يمكننا أن ندبر الفرز بسرعة ونختار ولدا نحدده من الآن ونخلص ، وسأشير عليك به ٠ لكن ٠٠ آه ٠٠ ياللخسارة ٠ انك تقول أن الولد معاطى مات أيضا ، رحمه الله كان أنسب الولدين ٠٠ لا عليك لا عليك ٠٠ سندبرها حالا ٠ عفر عفر ٠٠ ولكن ماذا سنفعل والدنيا مقلوبة والنيابة لا تكف عن المرواح والمجىء ؟ حقا ماذا نفعل ، لكن لا ٠٠ أنا أقول لك : منذ متى كانت النيابة تهتز من أشياء كهذه ؟! ألا تذكر يوم قامت البلد وأحرقت عزبة عجلان ؟ ٠ تحول الحادث الى قضية راحت تدب فى المحكمة سنوات وسنوات ومات قضاتها الأصائل ومتهموها أيضا وحتى هذه اللحظة لا أحد يعرف الام ستنتهى ٠ دعها تأخذ مجراها ومادام التفتيش وراءك والسنيورة أمامك فلا تحمل للدنيا هما ٠ ألا تستحق من السنيورة خدمة كهذه وأنت ترسل كل فحل وأخيه لتشبع متعتها ؟ ٠ عفر يا رجل وقل للولد يعمل لنا زردة العصارى ٠

والآن خذ هذه عهدة عليك أن تتصرف فيها ٠ سأقول لك حكايتها ٠ تعرف طبعا أننى أخذت الزكيبة فى عهدتى وختمت بأصبعى على تعهد بأننى سأتولى دفن الجثة بمعرفتى ولقد جئنا بالخشبة على شاطىء المصرف وأمرت اللحاد بأن يغسل الجثة فى سرعة الغسل الشرعى ، ودبرت لها مدفنا مقبرة صغيرة مات أصحابها من زمن ، و ٠٠ أن هذا كثير وحق الله ٠ بالأمس كنا حائرين فى دفن واحد فقط واليوم ندفن العشرات بلا أى تعب ! ٠ المهم أن اللحاد أخذ يعبث بالجثة ٠ دب يده فى جيب الصديرى أخرج

محفظة كبيرة لا تقل عن محفظة « البوريني » تاجر الأقطان . كانت منتفخة . لا تنزعج لم يكن بالمحفظة مليم واحد . لم أجد بها سوى هذه الأشياء . تفضل . هذا خاتم يبدو أنه باسم الفقيد ولكنى لم اعرف افك خطه . لعلك تعرف أنت . أظنك يا عمدة تعلمت فك الخط من مدة ، من يوم أن ذهبت لتقابل الملك فؤاد فى كفر الشيخ وقررت أن تعزمه على الغداء ، أظنك أيضا كتبت له خطابا تخبره فيه أن عائلتك ذات أصل تركى بعيد لا تتضايق هكذا وعفو .. أظنك أثبت للملك فؤاد أنك أحد أقاربه الذين ظلمهم القدر ، احذر ألا تكون قد أخبرته بهذا والا فأنت تظلم نفسك ظلما فادحا . انك لا تفترى عليه ، صحيح أننا نعرف أباك وجدك وربما جد جدك ولكننا نقتنع أنك بالفعل من أصل تركى عال ، ومن يدرى فلعلك لو بحثت فى الأمر قليلا بمعاونة الملك فؤاد فربما تكتشف أن البلد كلها كانت فى الواقع من بين أملاك المرحوم والدك ، أو من موروثات ذات المقام العالى والدتك . اننى أتكلم الجد ، دائما تشك فى كلامى هكذا وتعتبره تريقة ؟ دائما تسىء الظن بى يا عمدة ؟ سامحك الله. هاتوا الشاى يا أولاد . هاتوه ربما فتح العمدة مخه وعينيه قليلا. آه يا عمدة لو أنك أثبت للملك فؤاد جلالة قدرك ، ولا تتصور ما الذى كان يفعله لك فى محنة كهذه . دعك من هذا فأنت أشطر مخلوق شفته فى حياتى وعيب أن ترتبك هكذا أمام أوراق كهذه . المقصود. هذه هى العهدة التى وجدناها بداخل العهدة .. وكل عهدة ستجد بداخلها عهدة أخرى والمسألة بأذن الله يمكن ألا تنتهى . أقول لك ؟ .. كل « عهدة » ولها حلال .. هاهاها .. سى .. اضحك يا شيخ وفكها فى عرض النبى ..

هل كان من الواجب أن نكتب محضرا بهذه المحفظة ؟ الأمر لك على كل حال . قصدى أقول أن محضرا بهذه المحفظة سيجر علينا الوبال ألوانا ، ولكن الأمر لك مهما كان ، ثم أنها محفظة لاتحوى سوى بضع أوراق خنفشارية لا هنا ولا هناك .. « يا عم واحنا

مالنا سمك ما أكلنا بس اتهمنا » ·· صدق من قال هذا المثل ، ووالله انى لابن كلب ، ما الذى أضنى فؤادى وجعلنى احتفظ بهذه العهدة ؟ · ليتنى دفنت الزكيبة بكامل هيأتها بلا غسل وبلا كفن · نعم كان هذا هو الواجب·ولكن ، المقصود·لقد تعلقت بى العهدة وانتهى الأمر فانظر ماذا ترى · مالك تبحلق فى العهـدة هكذا وتشرد ؟ · تشغلك الأوراق أن خطها مثل روشتة الحكيم لا يستطيع أحد قراءته ، كما وأن بقع الماء تسربت الى جيوب ! المحفظة ولطخت الورق بالحبر ، ولو استطعنا أن نفك سطرا فكيف نستطيع فك البقع السائحة · أنت مهما كان رجل متنور، والحمد لله أنك سعيت وتعلمت فك الخط والا أصبحت المسائل مضحكة · العمدة وشيخ البـلد لا يعرفان الألف من نبوت الغفير ؟ ·· مصيبة ·· أقصـد كانت تكون مصيبة ·· عفر عفر ولا تحرق فى دمك ··

الخشية أن تجىء النيابة من جديد وتستخرج الجثة لتأخذ أقوالها · ربما يجيئون باللوم علينا ويقولون لنا كيف لم تأخذوا أقوال الزكيبة ، كل شىء جائز فى هذه الأيام · أنا شخصيا لا ذنب لى ، هـا أنا قد جئت بأقوالها والأمر لك · لماذا تنـدهش هكذا يا عمدة ؟ ان هذه الأوراق هى بالحق أقوال الزكيبة ولكنها أقوال خرساء لا تستطيع أن تفهم منها شـيئا · فلنخاطبها بالاشـارة لو أردنا ، وهذه مهمة ليست بالصعبة عليك أبدا · المقصود أرى أنك الليلة لا تصلح لشىء ، لقد انغلقت بالضبة والمفتاح ، وخـير ما أفعله أن أدعك الآن · فليك العهدة ، وسأعود اليك فى الصباح لنتفاهم بشأنها ·



الفصل السادس

سيدنا يضــع اللغز ..

أمام عريف الكتاب

وحق جلال الله انك عريف على قد حاله . قلت لك يا ولد انك لاتزال صبيا وبينك وبين الفقهنة درجات ودرجات . احذر بعد الآن أن تتمرد على ، وانزع من دماغك مسألة أن تفتح كتابا لوحــدك وتستقطب الأولاد معك . تريد أن تعرف لماذا طلبنى العمدة ليلة أمس ؟ . الواجب يمنعنى من أن أقول لك ، ولكننى سأقول لسبب واحد فقط هو أن تعرف أن الناس مقامات فى هذا البلد. وحد الله. تريد آن تسمع منى الحكاية ؟ صلى على النبى ، ثم زده صلاة ..

دفعنى مقصوف الرقبة الذى اسمه شيخ الخفراء أمام العمدة. أقصد قال لى اتفضــل يا سيدنا . وجلست ، وكان وجه العمدة مكفهرا وكل عفاريت الدنيا مقعية على كراسى خده الغليظ . قام بنفسه وقال لى بعد أن أغلق الباب . اقرأ لى هذه الأوراق يا سيدنا . « قال جل جلاله » « وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم » . نعم فوحق الله كنت أكره خط العيال فى الألواح وأتعب فى تصحيحها ولم أكن أدرى أننى أتعلم منهم فك الخطوط المعقدة المتلوية . ولذلك ما ان أمسكت الورق حتى نطقت بما فيها بعون الله . ولقد حفظت الكلام عن ظهر قلب اذ أننى كنت أقرأ السطر ألف مرة لكى يفهمه العمدة .

أول ورقة أمسكتها كانت حجابا ٠ أى والله حجاب مكتوب بالحبر الأحمر ٠ وبحق جلال الله ان من كتبه أجهل من دابة ٠ تصور يا ولد ٠ قسما عظما ان الذى كتب هذا الحجاب هو الشيخ « بكرى » ذو العمة الخضراء ٠ اننى أعرف طريقة كتابته للأحجبه واشم نفسه فيها وفى كلامه الغش الملفق من دماغه وليس من الكتب التى وهبنى الله اياها ٠ حتى هذا الحجاب أصر العمدة على أن أقرأه له كلمة كلمة ٠ ابتداء من « يا خدام الجان أحرسوا حامل هذا الحجاب » الى « ولا تجعلوه يموت فى أرض بعيدة » ٠ أضف أن الخدام رفضوا أن يسمعوا كلام الشيخ بكرى — ومنذ متى سمعوا كلامه ؟ ٠ بل انهم عاندوه وجعلوا حامل الحجاب يموت فى الأرض البعيـدة ٠ قلت هذا للعمدة فصـدقنى وانبسط من كلامى أيما انبساط ٠ ثم أمسكت بالورقة الثانية ٠ كانت ذائبة وملطخة بالحبر ولم نفهم منها شيئا ٠ كذلك بقية الأوراق ، كل ورقة لم يكن يتضح فيها سوى — سطر أو سطرين ، وكل ما نفهمه منها بضع كلمات تبين ان هذه الورقة كانت عقد بيع أما تلك فكمبيالة له أو ما أشبه، وهناك ورقة لم يبق منها سوى كلمات بالمطبعة عرفنا أنها شهادة معافاة من العسكرية ، وقد جمعها العمدة كلها ومزقها وألقى بها فى النـار ٠ و ٠٠٠

تدفع كم وأنا أريك سرا يساوى رقبتك ؟ ٠ ولكن لا ٠ انك ولد ثرثار لا يكتم السر ٠ وعلى كل حال ٠ كما يخيل الى — فأنت لاشك تحفظ العشرة مهما كان ، ولابد انك تحافظ على سمعة سيدك الذى علمك القراءة والكتابة ونقش على صدرك القرآن فأصبحت شيخا عليه القيمة حتى أنك تفكر فى فتح كتاب لوحدك ٠ انظر الى هذه الورقة ٠ فى حياتى لم أر ورقا بهذه الفخفخة ٠ أتعرف لماذا أخفيتها فى عبى ؟ ٠ لسبب واحد فقط ، لقد استخسرتها وأخفيتها حتى لا يمزقها العمدة ويلقى بها فى النار ، وقلت فى بالى أن تذكرها أقف على حيلى وأنفض نفسى فتقع وأكون قد أعفيت من مهمة السرقة ،

ولكن العمدة كان مدووشا فلم يسأل عن شيء . هذه الأوراق كانت ملفوفة فى جواب من الجلد . فخيل الى أنها أموال ولكن تبين أنها مكاتيب . مع ذلك فالمياه نفذت اليها ولطخت بالحبر صفحاتها . تعال نقرأها سويا ..

.. (سـطور سائحة ياولد ، لن نتمكن من قراءتها .. أول القصيدة كفر دائمـا ؟ . المهم) أننا نطلب من سعادتكم (بقعة سائحة) . وحضرة جناب المفتش العام أفندى يلقى الأمرين بسبب ابنه هذا ، الذى اصبح مثل الفلق ، لكنه يا حضرة كبير النظار مثله مثـل النـاف أو المحراث أو عرق الخشب ؛ لا ينطق ولا يتحرك ولا يضحك ولا يبكى انما يصرخ فقط اذا أعوزته الحاجة . عيون تبرق وجسد قعيد يخرأ على نفسه ويلزمه من يتكفل به ويسهر على راحته ليل نهار .. والنائم .. (بقعة سائحة) .. ومنذ صغره والتفتيش كله ينعى همه ويشفق على حضرة جناب المفتش العام أفندم . ولما كان جنابه لابد وأن يتفرغ لشغل الوسية وهو عبء ينوء به كاهل جنابه فقد ارتأى التفتيش أو يخصص لطلعت بك ـ ابن حضرة جناب المفتش العام أفندم ـ نفرا مقيما ، يقدم له الأكل دائما ويمسح له الخراء عدم المؤخذة ، ويغسـل له الثياب وينظف الفرش.والتفتيش يا حضرة كبير النظار يفد اليه ما لم تكن تعرفه من الأجناس والأصناف والألوان ، ولكنهم جميعا « غرابوة » أولاد كلب حقراء في غاية اللؤم والمكر ويخشى منهم على سعادة البك حاولنـا أن نبقى منهـم واحـدا ولكن البـك صار أشبه بالوحش الشرش . يصرخ ويزأر وينسف كل الأشياء التى تصادفه نسفا . واعلم ياحضرة كبير النظار أن هناك كثيرا من الأشياء يمكن لحضرة جناب المفتش العام أفندم أن يضحى بها من أجل عيون طلعت بك ، فليعش الولد وينسف . انما المصيبة أن الكثير من هذه الأشـياء نسقها تحوطه المخاطر ، قد ينجرح وجه أو تنكسر يد أو تنقلع عين أو تزهق روح عندما يستبد الغضب بطلعت بك . والحق كل

الحق ان البك لم يكن يغضب ويلجأ الى الصراخ والجعير والنسف الا بسبب الخدم « الغرابوة » • وكان لابد للبهائم (سطور كثيرة ملطخة بالحبر) •• والحق كل الحق أن هذا ما قد حدث • اى جمال وأى فتوة • لكنهم جميعا مصابون بلوثة (سطور سائحة) ••
كلفت أنا باستلامه ومراقبته • كان ولدا فارغا بحق ، يلبس جلبابا من الكشمير ويتلفح بشال من الحرير وفى قدميه بلغة صفراء • من باب الخدم أدخلته • وفى حجرة الخدم أجلسته وقعدت قبالته وقصدى أن آخذ وأعطى معه فى الكلام • وبعد برهة رأيت القلق على وجهه ورأيته لا يجلس على بعضه ، فأخذت أدقق فى ملاحظته •• كان ينظر حواليه كما اللص وقد ظننته بالفعل لصا ، وكلما سمع صوتا فى الحرملك نهض واقفا فيما يشبه الخشوع ، وتلفت حواليه كأنه يبحث عن أصداء الصوت ثم تركبه حالة غريبة لا أدرى ان كان فرحا أم فزعا ، فوجهه يتغير ويصير مثل وجه الطفل حين يسمع صوت أمه بعد غياب طويل ، فاذا تكرر الصوت فى الحرملك زام وارتعش ، وكور رقبته مشددا عروقه • قلت له : مالك يا جدع • فلم يجب ، انما نظر الى فى غير اهتمام كأنه لم يسمعنى، وفى عينيه ضحكة جذلة لا تريد أن تنتقل الى شفتيه وتخلصنى • قلت له : أتعرف عملك الذى جئت من أجله ؟ • فوقف وأجاب صائحا • نعم أعرفه • قلت له : هل أنت موافق عليه ؟ قال وقد أحسست أنه يتكلم من أعماق قلبه : اننى أحبه ورقبتى فداء له • فعرفت أنه يتكلم عن الولد ــ أقصد البك الصغير •• وأمرته أن يتبعنى • وفى حجرة البك الصغير أوقفته بجانبى يحلق فينا طلعت بعينين لا تقصدان شيئا أى شىء • قلت له لأشجع صاحبنا « ازيك يا طلعت بك » • فهمهم كعادته بشىء غير مفهوم • وخفت أن تتحول الهمهمة الى صياح وصراخ فجلست بجانبه ورحت اربت على كتفه بحنان وأنا أقول لصاحبنا « انظر ، تعلم ، هكذا يجب أن تعامل البك » • على أن صاحبنا لم ينطق بشىء ، ورأيته يشجب

ويبدو أنه كبر خمسين عاما دفعة واحدة ، فاقتربت منه · وقلت له :
« هيا أرنى كيف تغير له ثيابه » ـ وكأننى أكلم حمارا أو جدارا .
فنقرت بأصبعى على صدره وقلت : « هوه ·· أنت يا هذا » ·
فاندفعت من عينيه نظرة تفطر شررا ونارا · ثم كأن اللهب أحرق
عينيه فاحمرتا وانطفأ بريقهما تماما · ومال برأسه فوق صدره ·
فى تلك اللحظة تململ الولد ـ أقصد البك ، وضرط بصوت عال
وبان من صوت ضراطه أنه فعلها على نفسه · قلت لصاحبنا « الآن
·· أرنى كيف تمسح له وتنظفه ثم تغير له السروال وتغسله » ·
وأيضا لم يتحرك صاحبنا · انما ظل منكسا رأسه مثل فتاة انتزعت
بكارتها · زغدته : « أنت يا ثور ·· تحرك » · فاندفع يبكى مثل
طفل تاه من أهله وينظر حواليه كأنه يبحث عن أحد يعرفه · قلت
له : ما الذى يبكيك يا أخ ·· ان البك الذى ستخدمه لا يخيف ،
ثم انه وديع وابن حلال ، ولا يعض أحدا » · ولكنه ظل يبكى صعبه
على الجدع · قلت فى عقل بالى لابد أنه قد بلغته بعض الأخبار عن
حالة الولد ·· أقصد البك ، وأردت أن آخذه بالسياسة · عدت به
الى حجرة الخدم · كان والعياذ بالله يمشى ذاهلا فاقد الرشد ·
وكنت أنا أيضا أكاد أفقد رشدى · أجلسته · عزمت عليه بسيجارة
فلم يرض ، عرضت عليه الأكل والشاى ولكنه ظل يهز رأسه
ممانعا · وأخيرا التقط نفسه وشهق شهقتين أو ثلاث لا أذكر · وقال
بصوت متحشرج متقطع : « هى ·· هـ ·· هى فين » ·· قلت وقد
دار رأسى : « هى مين ؟ ·· من تلك التى تسأل عنها ؟ » ··
فقال وصوته يهرب منه : «ا ·· أد ·· الست ·· البغلة نعم ؟ ··
أية بغلة هذه التى يسأل عنها ذاك المأفون ؟ ·· وأدركت أنه لابد
ممســـوس ، وبدأت أخـــاف منه بعض الشىء ، على أننى تحفزت
لضربه فى مقتل اذا ما ركبه الجنون فجأة فى تلك اللحظة كانت
بهائم التفتيش عائدة من الحقول · ولما كنا بجوار الاسطبل تقريبا ·
فان البهائم صارت تمر علينا واحدة وراء الأخرى وتتوقف فاشخة

رجليها ويشر منها الماء فى بحيرة صغيرة · وجاءت بغلة التفتيش الحرون تتقافز وتثير الذعر بين البهائم · وفجأة ، أى والله يا حضرة كبير النظار هذا ما حدث ؟ انطلق صاحبنا يجرى خلفها · ولعلها فزعت منه فازدادت هياجا وصارت تضرب الهواء بقدميها · الا أنه فيما يشبه دربة الفرسان هجم عليها واعتقلها بين يديه وصـــار يحننها بأصوات وحركات غريبة حتى استسلمت له المديوبة فانقادت وراءه فأدخلها الاسطبل وسط دهشة الحمارين وخدم البهائم من أنفار التفتيش · لم تكن دهشتهم تقل عن دهشـــتى وأنا أدخل الاسطبل ضائعا وسط عشرات البهائم والخدم · فى سرعة كان صـــاحبنا قد أوقف البغلة أمام مدودها وقيدها فى الوتد وراح يتحسس ظهرها بيديه كما يتحسس الواحد منا أعز مخلوق لديه · وكان ينظر فى الهواء نظرة زائغة حـــائرة متلصصة ·· ووالله يا حضرة كبير النظار لقد وقفت ذاهلا من ذلك الممسوس ، وأمرت خدم البهائم أن يشـــوفوا شغلهم ولا يلقوا اليه بالا · وصممت ألا أفعل شيئا معه حتى يرينى هو ما الذى يريد أن يفعله ·

انتهى خدم البهائم من التتريب وخلط التبن بالفول وانصرفوا واحدا وراء الآخر وظل صـــاحبنا كما هو : تقول التصق بالبغلة ولا يريد أن ينسلخ منها ؟ قلت له بهدوء :

ـ ماذا ·· أتظل واقفا هكذا الى مالا نهاية ؟

فلم ينطق ، وازدادت نظرته حيرة وتلصصا · اقتربت منه قليلا · فتراجع ملتصقا بالبغلة أكثر وأكثر · أشرت له نحو باب الاسطبل قائلا :

·· هيا ·· أخرج أمامى ·

فركبه شىء كالذعر ، وانحنى على ظهر البغلة واحتضـــنها صـــائحا :

ــ لا ٠٠ لا ٠٠ انها هى ٠٠ هى ٠٠ لقد جئت اليها ٠ لا أريد سـواها ٠٠٠

امتدت يدى وراحت تربت على ظهره فى اشـفاق ٠ فلقد تيقنت من عدم سلامة عقله ، على أنه طوق عنق البغلة وراح يدفن رأسه فى شعرها ويصرخ صراخا لا أستطيع وصف ما فيه من ألم ٠٠٠ ويقول :

ــ انني أريدها ٠٠ أريدها هى ٠٠ فى عرضكم ٠٠ دعونى لها ٠٠ اننى أحبها ٠٠ لا أحد يحبها مثلى ٠٠ سوف أجعلها ترضى عنى سوف أريحها ٠٠

شددته من ذراعه بقسوة ودفعته نحو الباب فانكفأ على وجهه ونهض صارخا يريد الرجوع اليها ، على أننى لويت ذراعه وراء ظهره ودفعته أمامى الى حجرة الخدم وألقيت به فيها وذهبت الى حضرة جناب المفتش العام أفندم ، ونقلت اليه ما حدث وأنا أتصبب عرقا فاذا به يضحك ، واذا بالست هانم تأمر أن نتركه فى حاله بضعة أيام فربما يثوب الى رشده ٠ وتوصلت الى الطريقة المثلى لاخضاعه ٠ فحرمته من الأكل والشرب أياما بكاملها ٠ الى أن طلب الأكل بنفسه ، فاسطحبته الى حجرة الولد ٠ أقصد البك ــ ووضعت له الأكل فيها وأمرته أن يشارك البك فى الأكل ٠ ولما كان البك فى حاجة دائمة الى من يضع له الأكل فى فمه فقد أمرت صاحبنا أن يفعل ذلك ٠٠ وبدأ فى الأول خائفا ولكن شيئا فشيئا بدأ يعتاد الامر ٠ ومضى وقت طويل ٠ وارتخى شارب صاحبنا وتدلت أذنيه وصار يعدل طوقه باستمرار ويتحسس رقبته وقفاه ولا يفتح فمه ٠ وذات يوم قدر له أن يرى الست هانم تهبـط سلم السراية عارية الأكتاف والساقين ، فتسـمر فى مكانه واندفع يضحك فى جذل وبدنه يقشعر ٠ وظل بصره معلقا بها الى أن توارت بين أشجار

الحديقة ·· ثم ركبه الجنون · وصار يهرول هنا وهناك ويقول :
« هى ·· هى التى جئت من أجلها ·· أنا أريدها ·· دعونى لها »
·· ثم راح يبكى ويدبدب رجليه فى الأرض · ويجرى ، ويقرع رأسه فى جذوع الأشجار ، ويجعر · ثم فجأة أطلق صرخة مرعبة ، واندفع كالسهم يجرى ويتعثر ويجرى ويقفز حتى خرج من باب السور وامتلك الخلاء ، ونحن ـ أنا والجناينية ـ فى أثره فاذا بالبغلة منطلقة تجرى فى حالة هياج ، واذا به يطاردها · وعجبا كيف كان يلاحق سرعتها الجنونية ، وكيف تمكن من الامساك بذيلها والتشبث به والاستماتة عليه · فظلت تنفضه فى الأرض وتجرى وتضرب بقدميها الخلفيتين الى أن تركته جثة تتبعثر دما ·· و ··
(بقية الصفحة سائحة وملطخة بالحبر) ··

·· قل لى بالله عليك يا ولد · ما معنى هذا · أسميك جدعا لو قلت لى من الذى وضع هذا المكتوب فى محفظة الزكيبة ؟ ولماذا وضعت وما علاقة ما فيه بالجثة ؟ · اذا عرفت هذا يحق لك أن تستقل بنفسك وتفتح كتابا لوحدك · أرأيت ؟ ها أنت لا تعرف · أنا نفسى لا أعرف شيئا من هذا اللغز · قسما بجلال الله أنه مثل لغز الحياة والموت · يبدو فى غاية الوضوح ولكنه فى الواقع شىء أكبر من قدرتنا على الفهم · والا فقل لى ان كنت فالحا : كيف تقودك الحياة الى الموت ، وكيف تلتقى الحياة بالموت فى خطوة واحدة ؟ وكيف ينكشف سر ليخفى أسرارا ؟!



خاتمـــة

وســـيلة تغنى :

قالت جدتى : ازرعى فى قلبك عودا من الصبر ٠٠ وفى كل خطوة خطوتها زرعت الصبر فيها ٠٠ وغيطان البلد كلها لم تعد نطرح الا زهو الصبر وأمى ٠٠ آه يا أماه ٠٠ جاءك الهم أشكالا وألوانا ٠٠ وأقعدك الكساح على عتبة الدار ٠٠ هل أواسيك فى أخى مختار الذى دهسته الأقدام فى الليلة المجنونة ٠٠ ؟ أم أواسيك فى خالى معاطى ؟ أم أواسيك فى فراغ الدار من الرغيف ؟ أم فى الخيبة التى حلت بأبى ؟ أم أواسى البلدة كلها فى الخيبة التى حلت بها ؟ **لماذا يارب كتبت علينـا أن نكون أنفـارا ٠٠ بالله ما هذا الذى** يحدث ؟ ٠٠ لا أحد يقيم حسابا للحزن المتربع فى قلوب الأنفار ٠٠ يارب ٠٠ الأنفار أنفسهم لا يقيمون لحزنهم حسابا ٠٠ كلهم عرايا ـ يقرفون من أنفاس بعضـــهم قرفهم من رائحة الجوع ٠٠ فكيف يهرعون هكذا لمقابلة السنيورة من جديد ؟ ٠٠ كيف تصدق آذانهم هذه الطبول ؟ ٠٠ أمن الفرح يرقصون هكذا أم من الألم ؟ ٠٠ لا ليس هذا أبى ؟ ولن أصدق بعد اليوم أنه أبى ٠٠ ومن هذا الذى يراقصه ؟ عريف الكتاب ؟ يا عيب الشوم حتى هو ٠٠ ؟ آه يا دماغى ألفك بألف طرحة سوداء لا بواحدة حتى تثبت فى مكانك ومن هذا الذى يجىء من بعيد يشق الجموع ويهرول ليقف هكذا وســـط الدائرة انظرن أيتها البنات التعيسات مثلى ٠٠ هذا هو سيدنا فقيه الكتاب لعله يريد هو الآخر أن يرقص ٠٠ ما هذا الذى يفعله ؟ ٠٠

انه يصرخ فى الناس أن تهدأ وفى الطبول أن تكف قليلا . لقد أخرج من جيبـــه ورقا ها هو ذا يقرأ . أترينه يخطب خطبـــة الجمعة ؟ .. لكن لا .. أنه يقول كلاما غريبا .. ويشوح الورق فى يده أترين يا بنات ؟ . هجم بعض الرجال على على سيدنا .. اختطف منه الأوراق مزقوهـــا .. أخرجوه من الدائرة ارتفعت الطبول .. آه .. قلن معى يا بنات على وقع هذه الطبول العالية .. السن عملنى جمل واندار عمل جمال .. لوى حزامى وشيلنى تقيل لحمال .

(صيف ١٩٧٤)



موال فى الزمان القديم

- ١ -

فى صبيحة يوم قائظ جاء الرجل الى البلد · هبطوا على أرض النخيـــل ·

راحوا يقيسون الأرض ويزعقون ويشخطون · جـــاءت لهم حارسه النخيل وأطلقت فى الفضاء جعيرها · قال « المهندز » وهو يقبـل نحـوها :

ـ اهدئى يا ســـت

شوحت فى وجهه دون أن تخشاه :

ـ من انتم وماذا تفعلون فى أرض الخواجه ؟

قال « المهندز » :

نحن رجال الخاصـــة الخديوية ·· رجال أفندينا ·· طبعا تعرفينه يا خـــاله ·

زعقت بصوتها المشروخ :

ـ وما شأنكم بالأرض ؟

صاح « المهندز » ضائقا :

ـ ليس شأنك ياوليـه ٠

واستدار وراح يعمل ٠ هى الأخرى استدارت ٠ وبعد حين أقبلت ، تجر غرارة ملأنه بحجارة ٠ قلبتها على الأرض كوما هائلا ، وصارت تقذف الجميع ، وصـــار الرجال يتقاذفون ويصيحون ، وقطع الحجارة تلاحقهم على الطريق مثل صبيان أشقياء ٠ وقال العمدة المسكين يا رجال الخاصة الخديوية لا تورطونى مع الخواجة ٠ أنا لست قد الخواجة ولا أنتم ٠ أرض النخيل أمامكم وقد عرفتم من قبل أن تحضروا أنهـا ملك له ٠٠ فافعلوا ما تشـاءون ولكننى لن أعاونكم على شيء ٠ أما حارسـة النخيل فانى لست قادرا على تأديبها فهى كما تصلحون ٠٠ « حماية » ٠

عادوا بعد أيام وحطوا فوق أرض البائس المسكين « عبد السلام الشوربجى » ٠ بضع قراريط كان يفلحها ويأكل العيال من ورائها والخبز واللفت والحمد لك ٠٠ ليس للمسكين من ذنب سوى أن قراريطه فى مواجهة النخيل ٠ يومها صوتت زوجته وبكت أما هو ، فلم يصرخ ولم يبك ٠ انما تمدد فوق حافة الزراق وصار والأرض شيئا واحدا ، وحين رفعوه عنها كان يقطر طميا وطينا وماء ووريقات خضراء ٠٠ ثم ألقوه فى داره كومة من اللحم لا تنفع ولا تشفع ، يقضى النهار متقرفصا ينشد الحياة ومن فمه تتساقط قطرات من الأنين المكتوم ٠ وجاء حلاق الصحة وانصرف ٠ وجاء أهل الله من أصحاب الكرامات ٠ حتى القابلة هى الأخرى جاءت وأدلت بالنصيحة وكأنه انقلب أنثى تحيض ٠

- ٢ -

دخل العمدة ذات يوم كئيب وقال بسم الله يا أهل الدار ..
ثم مشى نحو القاعة الجوانيه . لكنه سمع من خلفه مواء خافتا
استطاع أن يميز فيه كلمة ياعمدة ، ثم شرفت ياعمدة . نظر حواليه
فرأى فوق مصطبة الدهليز جوالا مقعيا محدودب القامة تبرق فى
راسه عينان ، تخرزتين تسبحان فى بحيرة من الصــدأ ، وفيهــا
سواد الفحم المحترق . انحنى عليه العمدة وقال : شــد حيلك
يا عبد السلام . الأرض يا ولدى تساوى حياتنا ولكن ما باليد حيلة
الله يعوض عليك فلا تقتل نفسك وتقابل الله كافرا . أتبكى يارجل؟
هذا عيب . أنا لم أعرف انك هكذا مثل النسوان ..

وكان لا بد لعبد السلام ان يبكى فالعمدة لا يجيىء لخير أبدا!
.. ويبدو ان العمدة قد أحس بمــا يدور فى رأس الجوال المقعى
على المصطبة يرعشه البكاء بلا صـــوت ، فتحسس جيبــه وقال
مبتسما : ابسط يا عم فقد جئتك بالبشرى . وهنا انتصبت قامة
الجوال . وقال العمدة وهو يخرج حافظة نقوده ويسحب من داخلها
ورق البنكنوت الأخضر ويطوحها فى وجه الوجه الشاحب : تعطفت
عليك سماحة أفندينا وبعثنى لك بثمن أرضــك ، عشرة جنيهات
بالتمام والكمال . انكمشت قامة الجــوال وخــرج منها صــوت
ولا صوت له : ربنــا يجبر خاطره . وبقيت يد العمدة معلقــة فى
الهواء حتى تضايق . غرس نظرته الحامية فى جسد الجوال وقال
لا يعجبك المبلغ طبعا .. كلام بينى وبينك يا أبا عبده لا تؤاخذنى
.. أرضك كانت عجفاء مثــل امرأة لا يزين صدرهان ثديان ..
أنسيت أنك من عبطك اخترتهــا على واجهه ؟ أنسيت أن جيرتهــا
للطريق جعلت الطريق يجور عليها ويحتويها ويرملها ويفســد
تربتها ، كمــا وأن مواجهتها للنخيــل حجبت الشمس عنهــا

والهواء ؟ ·· أنسيت انك ضيعت فيها شبابك ومع ذلك لم تغنك عن الشـــغل أجيرا فى أرض الوســية ؟ ·· احمـــد الله على أنه خلصك منهـا ··

تجمد الجوال وقال العمدة بعـد برهه : « وعلى فكرة ·· آفندينا سيجعلك بوابا للقصر ·· الا تعـرف ؟ ·· ان افندينـا سيبنى فوق أرضك قصرا اسمه قصر الخاصه الخديوية ·· وأنت ·· ستكون بوابا له · وجه الجوال مثل بيضة انفقشت وسال صفارها فوق زلطه كبيرة · قال العمدة وهو يلوى شـــفتيه : « النعمة ثقيلة على بنى آدم ووجه الفقر يرفسها » انفصلت عن الجوال زلطه مستديرة ناشفة الدماغ مغمضة العينين وصـــارت تتطوح وتهتز وتقول : شفت يا عمدة ·· لن يرضينى ثمنا لأرضى سوى أن تعود ارضى ·· أما كونها بور وقد ضيعت فيها شبابى فهذا يجعلنى احزن عليها ولا افرط فيهـــا بأى مقابل · والعمدة لم يشأ الاستماع الى بقية الكلام · فشوح فى وجه الجوال ونهض واقفا ينفض عباءته ، ثم رمى ورق البنكنوت على المصطبـة وقال فى غضب : هذه فلوسك انت حر فيها ·· أنا مخطىء لانى اعتبرتك وجئت لحد عندك ·· ثم خرج يبرطم · خرج العمدة يا عين · وياليل بقيت انت فى الدار دهرا طويلا ، وأمامك يتقرفص الجوال مشتاقا لنور الخلاء ·

- ٣ -

كان افندينا بذاته ينجعص امام دوار العمدة يبك الدم من وجهه الاجرد ويبدو طربوشه كأنه منحوت مع الوجـه من صخرة واحدة · فى احدى يديه كرباج وفى الأخرى منشة ، وحوله رجال يمروحون بالمروحة · ومن حين الى حين يرفع احدى اليتيه ويضرط

بصوت عال فيحترق الهواء والعمدة يلوى انفه ويشمتز ويعتدل في الحال ويعتذر عن وجود هذه البركه القذرة التي خلف داره ٠ وأهل البلدة واقفون جميعهم لا يجرؤون على الاقتراب ، كما أعواد الحطب ريح أحدثت بها خرخشة وصاح العمدة معلنا : كلكم مدينون هذا افندينا » ٠ فلم ينطق أحد ٠ فصـاح ثانيـة بصوت اعلى : « وقد تعطفت سماحته باعفائكم من الاتاوة هذا العام ٠٠ وسوف يبلغ الكاشف بهذا حتى لا يتعب قلوبكم بالمطالبة ٠ هبت على أعواد الحطب ريح أحدثت بها خرخشة وصاح العمدة معلنا : كلكم مدينون للخواجة « جلانتى أبناء عم وشركاه » ٠٠ وهو يهددكم بنزع ملكيتكم عما قريب ٠٠ وافندينا سوف يخلصكم من الخواجة الى الأبد ٠٠ وغدا يصبح النخيل نخيلكم ولا أحد يهددكم فى أرزاقكم ٠ صفرت الريح بين الأعواد وضرط أفندينا واحترق الهواء وصاح العمدة ٠ « ان أفندينا سيبنى لكم هنا قصرا اسمه قصر الخاصة سوف يمدكم بالبذور وبالسلف ويوفر لكم المياه أيضا وسيوفر لكم كل ماتطلبون دون ان تحملوا هم السداد ٠٠ فأفندينا ليس كالخواجة انما هو موحد بالله مثلكم ويخافه ويخشى عذاب يوم القيامة ٠٠ وسيكون لكم الأب الرحيم وسوف تستظلون بقصر الخاصة فما رأيكم فى هذا الكلام » ؟ بقيت فى مكانها الأعواد صامتة لاتعرف الرأى فليس لها فى الكلام وقال العمدة : « افندينا لا يطلب منكم شيئا كبيرا ٠٠ انه يطلب ، فقط ان تعاونوه فى بناء القصر لوجه الله ولاجل النبى » ٠ فى الحال نطقوا فى صوت واحد : اللهم صل عليك يانبى ٠

- ٤ -

الناس تصحو لتسرح فى الغيطان أو تجلس فوق المصاطب تنتظر من يطلبها للمساعدة لقاء غدوه أو حتى زردة شاى ٠ وفى المساء يخمدهم التعب أو يرمى بهم الزهق فى أحضان الغفر —

زوجاتهم • والناس في بلدنا يتشوقون الى الفرح ويشتهون البهجه، ويعرفون أن كل الكوارث تحدث اشتهاء للفرح • حتى القمر حين يختنق فى بعض الليالى فالطبل والزغاريد يلفان البلد ولا يسكت لهما دوى حتى تنسحب الدماء الحمراء عن وجه القمر • وهم يعرفون ان من لف حبل المشنقة حول القمر هن بنات الحور لا بد ، ولهذا يغنون لهن قائلين فى ابتهاج حزين : « يلا يا بناته الحور سيبو القمر يدور ويلا يا بنات الجنة سيبوا القمر يتهنى » •

فجأة هاصت الدنيا وزاطت وقام فى البلد فرح كبير • امتلأت شوارعها كلها بالأفندية حمر الوجوه يرطنون فى همسهم وزعيقهم وعبنـه تشويحهم • وكثر الغرباء ذوى السحن المحروقة والألسن المعووجة ، والخرق والهلاهيل والمقاطف والفؤوس والكريكات • جاءت عربات تجرها خيول وتحمل حجرا ورملا وطينا وجيرا وحديدا وخشبا وزلطا ، وعربجية يسبون الدين ويشخرون ويتبولون وقوفا على قارعة الطريق • وأهل البلد يتطوعون بانزال الحمولات وحفر الأرض وتحويل المونة ومساعدة البنائين ، ويضحكون فى فرح ، لكن شيئا ما كان يبزغ فى الأعماق فجأة يزغد القلب يهزه يكاد يدميه ففى هذه الهجمة هربت بنات مع الأفندية ، واختلت نساء ببعض الرجال مقابل قرش أو هدية أو ربما الاعجاب بالوسامة • وكثرت حوادث الصراخ فى الليـل وزهقت الاسـماع من ترديد الشتائم فى العربجية ••

وفى النهاية كل شىء يهون ••

– ٥ –

قامت الجدران وارتفعت وظلت ترتفع حتى لم يعد أحد من الفلاحين يقدر على رؤية آخر الجدران • وكان ذلك يسعد الفلاحين

ويجعلهم يفغرون أفواههم كلما نظروا الى هذه الجدران التى أصبحت الشمس تشرق عليها فتحولها الى ظل ينحدف على الأرض ويتمدد فى أعماق البلد وعند الغروب تبدو الجدران كأسوار النحاس المنصهر ٠

- ٦ -

الفلك دواريـا ٠٠ ولدى ٠ وياعين ذوبى على ما قد حـدث ٠ فمنذ شهور ياليل كان النخيل أعلى قامة فى البلد ٠ اليوم صار القصر أعلى ٠ لم يعد فى الوجود بلد اسمها « شباس » لا ولم يعد فى العب كله بلدان تسمى بإسمائها ٠ فأنت اما من القصر أو من ثالث بلد على يمينه أو من ثانى بلد على يساره ٠ آه منك يا زمن لست فى صف الغلابة أبدا ولابد انه بينك وبينهم ثأر مبيت من قديم الأزل بالله قل يا زمن هل أنت كافر بالله حتى تفعل بالخلق هذه الأفاعيل ؟ ان كنت يا زمن تنسى فلتتذكر ما فعلته فى أبناء آدم الغلبانين الشقيانين بعد انتهائهم من بناء القصر ٠

يومها وقف « المهندز » فوق الدرجة العليـا ليسلم الباب الكبير ، وأشار للأنفار من أهل البلد ٠ فتدافعوا نحوه يتساقطون ، من الفرح أم من الاعياء لا يدرى « المهندز » ولا هو يريد أن يدرى ٠ قال يا رجال هيا نظفوا هذا الطريق بدءا من الترعة حتى مدخـل القصر الكبير ٠ فى نهار واحد كان الطريق قد اسـتوى ، بالردم والتصليح ، على جانبيه ارتصت قصارى الزرع وأحواض الورد ٠ وبقى الطريق فى انتظار أن يطب أفندينا ومن معه من علية القوم المحترمين وقالوا ان القصر أنشىء لاستقبال هذا اليوم ٠ ففى الأمر عروس ٠٠ وعريس ٠

سد الطريق في وجه كل الفلاحين وخصص للعربات والأحذيه وأقدام الخيل ٠ وتوافد السادة الكبار ٠ وكانت الخيول تدخل الطريق المعبد تجر عربات تحمل الأسرة والدواليب والترابيزات والكراسى والسجاجيد والألحفة وغير ذلك من المنقولات التى جعلت القصر من الداخل شيئا لا مثيل له ٠ وصار خدم القصر وعبيده يحكون للناس عنه ، كما صار شيخ المسجد يصف جنة الخلد قائلا للمصلين « كأنها قصر الخاصة بكل ما فيه » ٠

أسفى عليك يا عبد السلام يا شوربجى ٠ حين نقلتك زوجتك ووضعتك أمام بوابة القصر لكى تكون بوابا له كما اتفقوا معك ٠ صرخت الجدران لحظتها وهدرت ورددت أدواره العليا كلها كلمة واحدة : « اكنسوا هذه الوساخة من هنا » ٠ وكنسنك أيدى اخوانك من أهالى البلد ثم كنسوا الأرض من آثار أقدامهم ٠٠ أين تذهب يا عبد السلام وانت جسد معبأ فى غراره ؟ لكن الغراره فجأة تنتفض وتتمزق اربا تتناثر فى الهواء ٠ انتصب الجسد واقفا كأبينا آدم لحظة ان تساقطت عن جسده أوراق الشجر ٠ زايلك الهزال وصرت تصرخ فى مواجهة القصر لكن صوتك يعلق بجريد النخيل ويتساقط فى الأرض حواليك فيدفعك نحو القصر فى غضب ٠ يراك النساء فيشهقن ثم يصرخن ثم يستدرن عائدات ٠ ويتمعن فيك الرجال ويلوون الشفاه ، وصوتك المبحوح يعوى ثم يعوى ٠ اعترضك الخفراء ظلوا يدفعونك يزغدونك يضربونك بالشلاليت وبالدباشك ووقعت ثم وقفت ثم وقعت ثم انطرحت فتركوك جسدا هامدا ، وهرعوا لاستقبال الوفود والمواكب ٠ طرح العمدة عليك عباءته ٠ وعرضت زوجك سقف دارها لمن يعطيها ثمن الكفن ٠ وكان النهار قد انتصف ٠

- ٨ -

فى الظهيرة كان الأفندية والبكوات والباشوات ينجعصون امام الغتمر وبـين خطوط النخيل . يضـحكون يقهقهون يصيحون يطرقعون أكف بعضهم بعضا وفى فرح كما الصبيان . دهش الناس لأنهم يعرفون الأفندية خلقوا ليتجهموا فى وجوه الفلاحين ويشخطون فيهم ويسوطونهم ويضربونهم بالشلاليت ويأخذون محصولهـم أو يشترونه منهم برخص التراب ، أما أن يكونوا مهزئين هكذا فذلك ما لم يعرفوه اليـوم لا يتصورون انه واقع . الخرفان والعجول التى انتزعت من أهالى البلد وتم ذبحها بمعونتهم تحولت الى أطباق تروح وتجيىء بين أيدى رجال يلبسون أبيض فى أبيض .. ثم تندلق فى عشرات الكروش تتعاقب على المائدة . فى العصر تسلقت الفوانيس والكلوبات هامات النخيل .. وحضرت وفود جديدة تحفها الزغاريد وطلقات الرصاص .. تطوعت نساء البلده وبأصواتهن الرائعة علمن نسوان البندر أصول الزغردة . لم يكن لهن ناقه فى الموضوع ولا جمل .. ولكن نسوان بلدتنا مثلهن مثل رجالهـا تواقات الى الفرح دائما حتى ولو تم فى بيوت غير بيوتهن . كان ركب الزغاريد طويلا وعريضـا وحافلا هبط من مقدمتـه رجال يلبسون الحلل الصفراء ويمسكون الطبول والمزامير والدفوف وكان الفلاحون يتقاطرون من كل ناحية ويزحفون نحو الموكب فى حذر وخشية يتهدل الفرح فوق ملامحهم . جعلوا للفرح جسدا بارزا وقذفوا فى قلبه ولدانا تطير لاعبه راقصة مبارزة . غير ان الطبول ما لبثت أن خمدت بارادتها وسحقت كل نبضات البهجة ثم حلق فى سماء الدائرة نغم حرج ثم تشقق جسم الفرح ومن شـقوقه طلع الخفراء بالعصى التى أخذت تنهال بلا رحمة فوق الأجساد الفرحة ، الى آن هرعت الجلاليب مذعورة وتطايرت فى الهواء بلغهم وبراطيشهم وضحكاتهم المكسـوفة البلهـاء . صفصف الجو على الطرابيش

والعباءات ، لكنها جميعا كانت تسبح فى غبار بدا للفلاحين الذين وقفوا بعيدا يتفرجون ، كأنه قفص من الدخان • ثم طلبوا للغداء فهرولوا خلف بعضهم يتسابقون •

- ٩ -

العريس ولد حليوة أما العروس فقالب من الزبد تبارك الخلاق فيما خلق • فى الدور الأرضى جلست فوق الكراسى العالية جلست تتألق وتضوى وتضمخ هواء القرية كلها بعطر تاجر مجنون ، أميرة تجاورها وصيفات بإرادتهن خسفن أضواءهن مجاملة لهـا • وفى الصالة الكبيرة الفخيمة والحجرات كلها نساء من بنات الحور لابد ، وعوالم فرح وآلاتية وصاجات ومزاهر وأكواب الشربات لا تكف عن الدخول والخروج رغم تعفف الحسناوات • العروس ابنـــة أفندينا • أما العريس فابن أرملة حسناء باعت جسدها للباشوات ولجنود الاحتلال فأنجبته ولدا سمهرى القوام ملون العينين يبيع جسده أيضا لنفس الباشوات ونفس الجنود ، ويبيع حسنه الرقيع لأبناء القصور وبنات البيوتات ويأخذ أعينهن ثم قلوبهن ثم ينفق من خزائن آبائهن ، وقد فازت فى السباق خزائن أفندينا من أجلها جاء الفتى يعتلى الابنة والضيعة زوجا وناظرا • أى عزيا عريس وأى فرجه • كل العرسان تزف زفافا واحدا أما أنت فتزف الليلة الى العروس ـ الضيعة ـ القصر فما أسعدك ولقد حار المدعوون على أى زفاف يهنئون وكل زفاف يلزمه كلام وفعل وورود ••

- ١٠ -

كل واحد فى البلد تمنى أن يرى العريس رؤية العين • ووقف كبير الخدم أمام القصر ينظم الخفراء حول الأسوار ويزأر فى الناس

قائلا أيها المناكيد ما الذى تريدون رؤيته ؟ ثم يهمس فى أذن الخفراء المتلهفين : حتى أنتم تريدون رؤيته ؟ ثم يصير همسه الى ما يشبه الفحيح اللاهث : انه آدمى مثلنا وابن تسعة ولا فرق بينه وبينكم سوى أنه محظوظ دعت له أمه فى ليلة قدر وليلة القدر هذه بعيدة عن شواربكم يا أيها المناكيد فأنتم جميعا أولاد نسوان طمست الدنيا الوسخة بصيرتهن وأعماها المش والبصل واللفت عن رؤية كل شىء ولذا فواحدة من أمهاتكم لن ترى ليلة القدر طول حياتها • يكتم الخفراء ضحكاتهم فى أكمامهم ويعضون على نواجذهم بينما يتلفتون حواليهم فى خوف • ويستدير كبير الخدم يصفق كفا على كف ويقول عشنا وشفنا الناس لا تتلهف على رؤية العروس بل يشغلها رؤية العريس •

- ١١ -

لكن الموال رآه ورأى كل شىء فمن غير الموال يستطيع أن يرى • لقد كان حاضرا وكانت الأرض أيضا حاضرة : امرأة فتية عملاقة ، لكن الحزن واراها فى أحد الأركان ولفعها بشاش أسود ولثمها وكمم فمها ، لكنها مع الموال تحدثت ، نشجت فى الناى وزفرت فى الأرغول ونهنهت فى السلامية ولطمت خدود الدف وتأوهت تحت قوس الرباب • ولقد زحفت أغانى المدينة والبشارف والطقاطيق فشخلعت الغوازى وأغرقت الجميع فى الخمر والنقود • كان العريس يخوض فى بحر من اللبن ويقهقه • من يد المهنئين يتناول كئوس الخمر يجرعها فى شره مجنون ثم يقهقه • تشيله الأغنيات • من فرط النشوة يتمايل • ترتمى على صدره الغوازى يحوطنه بالأجساد الرخصة يشعلن فيه نار الهوى المشبوب ومن فرط الهوى يتطاير يكاد يتفتت يتمايل يتساند يتحسس يلثم ويضم يقبل يحضن يتدافع بين الحجرات يفتش عن شىء لم يستمتع به • فى كل جدار مراه وفى

كل مرآه عشرات الأفراح وفى كل الأفراح لا عريس غيره • الفرح
يوغل فى الليل والليل يوغل فى الفرح والعريس مترع بالنشوة •
تعبت بالحضور وانهدت الأجساد المتشيطنة وقلت كثافة الجمع
وصوت الايقاع لا يصيبه الوهن • فى أسماع الليل يدب يطوح
جسد عريس الشؤم الغائب عن كل وجود • ولقد عجزت كل الأيدى ـ
من فرط البهجة عن تهدئته • انصهرت روح الشيطان بأعماقه ،
دار ودار وكان يقهقه ، ثم تهـــاوى فوق الأرض كعود القصب
اليابس • اندفع القصر بحاله • أخذ يقلب فى الجسد المنطرح
ويشهق فزعا : يا حول الله •

- ١٢ -

غلقت الأبواب كلها • انخفضت رءوس المناكيد كأنهم الجنان
غطست البلدة كلها فى غبار رمادى كئيب • بدا أن الصقيع لن
يفارقها الى الأبد ، وسيظل يصبغ نهارها بمسحة ليلية داكنة •
ولم يعد أحد يمكث فيها طويلا ، فالكل يبحث عن الشمس فى خلاء
بعيد ولابد أن عفريت العريس ينفخ فى بطن القرية جبالا من الركود
والخوف يملأ الليل بالعفاريت المردة والنداهات و • الطريق التى
احتجزها القصر لنفسه لا تزال تستنشق رائحة الأقدام ، وتتشوق
الى روث البهائم • والمناكيد يعودون مع الغروب كل يوم من طرق
بعيدة وغير سالكة فاذا نظرتهم من بعيد وجدتهم كأنهم بقايا جروح
غائرة فى جبين المساء • يا أيها المناكيد ما سر ما فى أعماقكم من
حزن ؟ قالوا : التوق الى الفرح • يا أيها المناكيد ما سر ما فى
أعماقكم من خوف ؟ قالوا : الموت تحت سنابك الأقدام •

(مارس ١٩٦٣)

أنشودة الكورس الحزين

في حوارى قرية عابسة ، تنام مستلقية تحت ظلال الصفصاف ، وتطمئن كلما نظرت صورتها فى قاع النهر · يمر ·· كل يوم ·· ثلاثة صبيان وربابة ·· وينثرن هذه المقاطع ·

المقطع الأول :

بركات ولد غلبــان ، جدع مقهور ·· تنطق عيونه بالعذاب والألم · جلبابه « الكزمير » قال : يا أهل البلد الولد غلبــان ، الولد بردان ، هذا حرام ، هل من كريم ؟ هل من عطوف القلب يستر ذلك الجسد المضام ؟!

فتغافلت عنه العيون · حتى كبار القلب قالوا : مالنا ! أو ليس للمظلوم أم تستره · مع انهم ـ يا ألف حسرة ـ يدركون المسألة · والمهزلة ، ان القلوب صديقة وربيبة للفتى بركات ! ·· ان السؤال يظل يطرح فى الحوارى والحقول وعند بئر الساقية ـ ان غاب عنهم ليلة أو بضع يوم :

ـ يعنى ·· لم يبن بركات ·

ـ ألم يظهر هنا بركات ؟

ـ لابد أن اليأس قد أضناه ·

ـ أو قل طواه الشوق للأحباب ·

ـ تقصد بها الجنية ؟ ٠٠ هو لا يبارح حضنه ٠

ـ أفلا يبارح جفنها ؟!

ـ لم لا تقولوا انه قد جن ؟

ـ ذاك قول صادق ٠٠ ذهبت بعقله الجنية ٠

ـ والله قد رحمته ٠٠ رحمته من أمه ٠

ـ أمه سلبته صوابه ٠

ـ فارتمى في حضن جنية ٠

ـ يا للفظاعة يا رفاق ٠٠ هل من صخور قد ذاك القلب ؟!

ـ حينما يتزوج الشيطان اما أرملة ٠٠ لا تنتظر منها حنانا ٠

عاد الفتى بركات ؟! ٠٠ أهلا وسهلا يا ولد ٠ من خوفنا ذهبت بنا شتى الظنون قلنا بأنك قد ذهبت الى هناك ٠ هيه ٠ ما حال خلق الله تحت الأرض ؟ ما حالها محبوبتك ؟ هل أتاها حديث أمك يا ولد ؟ ٠٠ آ ٠٠ ه تضحك ؟! ٠ لابد انك لا تريد البوح بالسر الدفين ! ٠ نحن نعلم ان كشف السر يعنى قصم ظهرك ! لكننا والله لا نبغى سوى نفعك ٠٠ ولتنحسر أستار سرك أو لتبقى مسدلة ٠ لكن بحق الله قل : ما شكل ما تحت هذى الأرض ؟ ٠٠ لابد ان أناسها قوم يحبون الحقيقة ! ٠٠ لابد ان سنينهم قمر وشمس دائمان ! ٠٠ لابد ! ٠٠٠

٠٠ ضحك الفتى بركات ٠٠مشى لف البلد ٠ نثر السلام على المصاطب والمنادر والحوارى والدكك ٠٠ ثم جرر خلفه البركات والدعوات وقوله اتفضل ٠٠ صافحت قدماه أرض الناحية ٠ بسمت له الفتيات من تحت الزلع ٠ غنى له الصبيان :

ـ « بركات يا بركات ٠ اغطس وقب وهات ٠ انزل لتحت الأرض ٠٠ واستحضر البركات ٠ ولأهل فوق الأرض ٠٠ استلهم

الدعوات ·· يا من أبوه مات ·· وخلف الفدادين ·· وضاعت الفدادين ·· أضاعها الشيطان ·· من أجل رمشة عين ·· سوداء لون الليل ·· والليل فيها نهار ، أحلام شيطان ·· أذاب شمعتها ·· وفقأ حبتها ·· وصار يبعثها ·· تبيع الكحل للفتيات ·· والعطر والمناديل ·· وانت يا بركات ·· تهرب لتحت الأرض ·· وتغيب في الأعماق ·· تحضنك جنية ·· تسقيك حنية ·· فترتوى وتعود ، بالخير والبركات ، والحب يا بركات » ·

فى موكب الصـــبيان ينتشى بركات ·· وينسى أهل فوق الأرض ·· وينسى ذلك الشيطان · وعند بئر الساقية ·· يحاط بصبية الحارة ·· يحكى لهم حواديت :

ـ « الليل يا أولاد غول قابع فى الدار · بأستاره السوداء يحمى أمنا الغولة وغولة البر يا أولاد ·· أنيابها تغوص فى أكتاف أبنائها فجوفها ضرير وقلبها شرير ·· فى قبضة الشيطان ! يا ويلها منه ·· لو انها خدعته أو حركت ذنبا ·· من غير ما يعلم » ·

ـ يا لوعة الأبنـــاء !

ـ ·· أما تدرون يا أولاد ؟

ـ أخبرنا يا بركات ·

ـ ستجىء نداهة ·· فى ليلة ظلماء ·· لتنقذ الغولة ، من قبضة الشيطان وتسلب الغولة ·· روح غيلتها !

ـ وكيف يا بركات ؟

ـ ستغيب بالشيطان : تطرق عليه الباب تدعوه للصحبة ·· تربطه فى حبل ·· وتلف ظهر الأرض ·· تدفنه فى النار ، فى أحضان ، ما لها شطئان !

ـ وبعد يا بركات ؟!

ـ تحرقه في لمحة ..

ـ بركات .. بركات .. هل يخدع الشيطان ؟

بعث الفتى عينيه للاشيء . وضاعت الكلمات .

ويظل برهة ساكنا مثل الصنم .. وكأنه فقد الحياة الى الأبد .. وتترى حوله النظرات تطوف بوجهه المسلوب . ومجمرة في يد الشيخ المعمم بالقلوب .. أخذ « تبخر » ذلك الوجه الحبيب .

ويسرى في دخيلتهم دبيب حلو : فها هو الفتى يودع أهل فوق الأرض .. وبعد برهة سيغيب في الأعماق !

وبعد هنيهة وقف الفتى . أطلق في الفضاء الرحب صرخة لوعة .. فارتج سطح الماء فوق البئر .. وانشق في الحال .. طاويا بركات .

ويرجع موكب الصبيان . يدمدم في خطوهم صوت الحكاية .. ويغلي في صدورهم الصغيرة خاطر مبهم .

***

يعود الرجال من الحقول في المساء يتأبطون حزما من الأسئلة تسحبهم البهائم الى الدور . تختلس أعوادا من الحزم وتلوكها في صمت .. والرجال يجترون الخواء والسام وموكب الصبيان يلتوى وينحنى ويتعرج وينسد ويذوب في قيعان الدور .. الأسرة على مصاطب القيعان في المساء ذبالة عليلة تلفظ من الهباب الأسود أضعاف ما تبعثه من ضوء أليف . وطبق العشاء في صحن الدار

نطع شهية من قلب أمنا الغولة · وقلل من الفخار تنهمر الدموع من شبتى مآقيها · دموعها قطرات ماء البئر · زغردى يا قلل ·· املئى صمت الديار طنينا أجوفا · عمرى ليلها الخاوى بشىء أى شىء · الليل صوت الساقية ، نواح النواعير ، تحكى قصة الأبد المطلسم : « طارة » مهولة تدور فى هدوء قاتل تخرج من الأعماق مفتوحة الأحداق تبصق على هذا العالم ادفاقا من الأسرار تجيش فى شنى الصدور ! ··

·· « لكان مناء البئر يا بركات يطفى لوعتك ·· ما ان تحتضنك حتى تحس بارتواء · تذوخ أنت لحظتها · تدوخ وتدوخ وتكاد تهوى من شدة الفزع ·· ولا يريحك سوى هذه الأحضان الحنونة ! · انها تعيد اليك صوابك · ها أنت ، بالرغم من انك قد أفقت وانزاح عنك ذلك الكابوس الثقيل ·· تحس انك لا تود الانسلاخ من هذا الكيان الرطيب · آه ما أحلاه · خذ لك غطسا آخر ·· وآخر ·· ابق تحت الماء أبدا ·· ما أحلى التنفس من خلال الموج ·· كتل الماء تفتح خياشيمك وتبعث فى جسدك الحياة ·· ألا تدرى ما السر فى ذلك يا ولد ؟! بالطبع لا تدرى · كل ما تدريه ، انك ساعة قذفت نفسك فى هذا الخضم كنت لا تبغى الى الوجود عودة · خلعت ثوب الحياة واندفعت فى جوف البئر عاريا منها ·· فكيف يلتحف جسدك بهذا الثوب السحرى كيف لم تكن تدرى انك كنت شخلويا من النار قذفته عين الشيطان فى لحظة غضب جنونية ، وكان لابد أن ينطفىء فى هذا الجوف الذى يحتويك ؟! » ··

أرخى الفتى ذراعيه على صفحة الماء · اهتز رأسه فوقها بنشوة عارمة ·· صور متلاحقة تدهمه دونما هوادة أو رحمة :

فى ليله ســـوداء مثل الكحل دخلت أمه القاعة ·· لطمت خدها ·· وصرخت صرخة مكتومة جاءت بملاءة بيضاء غطت بها ذلك الجسد الممدد فى الفراش · الفجر يطلع لكنه فجر كئيب · لم يكن ليلة قد انسحب ، فقط ، انكمش ، وتكثف ، وانصب فى كتل متراصة تحتشد بها القاعة . لها عديد من الأيدى والرؤوس ، تنتفض وتصدر أصواتا مشروخة من فرط الارتياع · النعش يتهادى وسط موكب حافل بكتل أخـرى تتحرك ولكنها لا تصدر أصواتا · يمر النعش بالزاوية · يزوده الفقيه بنصيبه من الصلوات ·· يغبطه على متاع الآخرة ، الذى هو ذاهب الى لقياه · انفتح باب القبر عن فجوة ظلماء فح الليل من جوفهـا عفن الرائحة ، لابـد انه كان مسجونا بداخلها قبل نشأة الدنيا ·· ليل معتق ، هب من جوف المقبرة فزعا ثم عشش فى جوف الدار وصنع له مخدعا جميلا مستقرا ·· أخذت له الأم زخرفها وازينت وفى حضنه نامت !!

يا ليل يا شيطان · أمه خلعت لك السواد ·· وبرق عريها فى جوفك الضرير · تقلبت الدنيا فى حضنك وتلوت ، وتمطت وتثاءبت · وعصرها ساعدك القوى بقسوة فتأوهت · تهدل على ذراعيك شعرها فكأنكما معا شجرة صفصاف رمتها الطبيعة على هامش الشطئان ! · تسلل صوت الأم من القاعة الجوانية ·· كصوت مواء القط ، ممطوط مرتعش ، مختلط بضحكات · نهض الصبى من نومه فى الدهاليز · دفع باب القاعة انشق الصمت عن شهقة فزعة ، وطنين شىء ثقيل يهوى على الأرض · توقف الوجود هنيهه · يد من حديد تطبق على عنق الصبى · تشده خارج القاعة · تعيده الى فراشه تلصقه بالأرض فى قوة جبارة · خنقت على شفتى الصبى صرخة ملتاعة · من شدة الخوف نام كأنه مات ·

فى الصبح جمع صبية الحارة · وراح يحكى حلمه المشؤوم · هكذا سماه ، كيما يصدق الأولاد ·· ألم ير الشيطان ؟ · لكنه لم

يكمل . هبطت أمه كالقدر . جذبته من يده هوت عليه كأنها تقتله .
وجاء الليل بالشيطان ، وفى عينيه نار موقدة . سددها اليه فى
حدة وأمره أن يقترب فتباعد الصبى : دب الفزع فى قلبه . أطلق
مع الريح ساقيه فزلزلت الأرض خلفه . نظر وراءه ، فاذا الشيطان
يلاحقه . علت صرخاته . ظل يجرى .. ويجرى .. وتزلزل الأرض
خلفه .. والفضاء ممتد أمامه كسجن عريض . لابد أن يتوارى
أين ؟ .. خيال شجرة الجميز يلمع فى صفحة البئر . الأرض
تهدر خلفه . يد الشيطان كادت تلمسه . صرخ . صرخ . صرخ .
انشق ماء البئر وابتلعه . اصطدم فى جوفه بأشياء بارزة . تشبث
بها . ظل برهة معلقا بين الماء والهواء . أحس فيها بدبيب خطى
الشيطان تتراجع وتبتعد ثم تختفى . خرج من أعماق البئر .
ووقف وحده طويلا . أحس برهبة المكان من حوله . طن فى سمعه
دبيب الخطى من جديد . خيل اليه أن خطى الشيطان تبحث عنه ..
وحتما ستصـــل اليه . لابد أن يهرب . ولكن أين ؟ . هل من
ملاذ ؟ .. والفضاء سجن فسيح ؟! نزل البئر ثانية . حرك ذراعيه
وقدميه فى همجية . اكتشف انه يستطيع البقاء على سطح الماء
فترة طويلة . فى الصباح ظل واقفا طول النهار فى الشـــمس
يرتجف . رآه الناس يخرج من البئر . بانت على وجوههم دهشة .
قالوا : اذن لم يمت بركات .. كما قد أعلن الشيطان ..

.. من يومها والبئر حضن حنون يحضنك . ومن يوم الى
يوم تغوص فى أعماقه .. البئر نبع زلال لا قرار له .

***

هجر الفتى داره من ذلك اليوم البعيد . أصـــبحت أرض
الحوارى مرقدة . وخضرة الحقول مرتعة . وفى أعماق البئر يفرغ

همومه · ومن حين الى حين يعود الى البــلد · وفى عينيه نظـرة بلهاء ·· وفوق ثغره بسمة غامضة · وقيل « لقد رافق الجنية » ·

ــ « ··· الجنية ؟! الجنية يا من يحكون ويحيكون قصة حبك لى · آه يا حبيبتى الجنية ·· آه لو التقى بك ·· أو تلتقين بى ؟ آ ·· ه ·· جنية ؟!

المقطع الثانى :

كانت « أم الخير » تملأ البلاص من ذلك النبع الزلال · أرخت الحبل وتركت البلاص يغوص في الماء ·· ثم انحنت ترفعها ·· فانفك قفل « كردانها » ·· وابتلعته أعمــاق البئر · صرخت « أم الخير » ·· لطمت خديهــا ·· ذهبت الى الدار من فورها صريخها يلف الحوارى ويتسرب الى القيعان من خلال أعواد الجريد المطبقة على الطاقات والنوافذ والأسطح · وانتفض الدجاج فى الحظائر وعوت كلاب فوق الأسطح ونهق حمار وصرخ طفل على حجر أمه وانقلب « بكرج » الشاى على يد أحد الآباء فانسلخت · لفظت الدور نساءها ورجالها وبصقتهم على العتبات يشدهم فضــول غريزى · « أم الخير » تتدحرج · تســابق الجميع فى سلب لب الحكاية بمختلف الأساليب · فمنهم من خطف منها جملة ومنهم من ســار خلفها تجمع ما يتســاقط من فمها من كلمات · تكاثرت الكلمات وتناثرت وتحولت الى رجال ونساء وأطفال وربما دواب يسيرون خلفها وفى أعماقهم حماس غامض الى انتظار شىء مجهول · توقفت بهم عند منزلها · ثم ، كأنهم جميعا كانوا يدخرون ما فى حوزتهم من كلام لحين وصولهم الى هذا المكان ·· فما لبث أن ارتفعت فى الجو أصوات متداخلة متشابكة تتناحر ولا تقول شيئا مفهوما على الاطلاق ·

وحينما هبطت « أم الخير » صحن دارها وهبط رأسها على صدر أمها ٠٠ آبت الأصوات الى شيء يشبه التحفز أو الانتظار ٠٠ انتظار شيء ما ٠ شيء يبدد صمت الليالى ويحرك ماء البئر الآسن فى حياتهم ٠ ثمة ولع بمأساة ما يرقد فى كل هذه الأعماق ولع غريب ، بحدث جل ، أمضى الجميع أعمارهم فى انتظاره ٠

وفى ليلتنا هذه انسحبت الشجاعة من كل الأوصال ، حتى من قلوب العديد من شبان البلد العايقين المتعشمين فى بسمة رضاء من أم الخير ٠ فالبئر ربما كان بئرا ٠ وأضعف مخلوق من هؤلاء خاض غمار المصارف والترع وآبار السواقى آلاف المرات ٠ أما بئر بركات ، بئر جنيته الحبيبة ٠٠ فأين هو الشجاع الذى يضحى بعمره ويقترب منه لقاء بسمة من أم الخير ؟

الكل كان يتمنى قدوم يوم كهذا اليوم ٠ وبالتحديد لحظة كهذه ٠ لحظة كانت أمنية تعشش فى أذهان البلد خاصة شبانها ، لكى تتاح لهم فرصة الاستمتاع بالكشف عن شجاعتهم واستبسالهم وطاقاتهم الثرية المختزنة فى بطن الخواء اليومى الرتيب ٠ فما بالك وأم الخير هى صاحبة الموقف ٠ يا طالما جاءت سيرتها فى خاطر أحد الشبان فتمنى أن تجمعه الظروف بها فى حادث يثبت لها انه ولد ولا كل الولدان ٠ ولكن ها هى أم الخير فى كارثة ، فقدت كردانها الثمين الذى لف صيته العب كله فصار أغنية على نهديها ٠ وها هم جميعا يرونها تتمزق : جزء عظيم من جمالها ضاع ٠٠

مر الفتى بركات ٠ زعقوا جميعا قائلين : تعال يا بركات ٠٠ فجاءهم بركات يجرى وفى قفزاته حب كبير :

ـ هيا يا بركات ٠٠

ـ احضر لنا الكردان ٠٠
ـ خذ ما تشاء من النقود ٠٠
ـ بركات لا يبغى نقودا ٠٠ بركات جدع ٠٠
ـ لا تكثروا الكلمات ٠٠ هو سوف يفعل دون أن نرجوه ٠٠

لم يدر الفتى شيئا ٠٠ لا ولم يفهم عن الكلمات ٠٠ سرب الحنان رفرف قادما يتهادى من عينى أم الخير ٠٠ ولكن من خلف نظرة انكسار مبللة بالدموع ٠٠ « ما أمتع الجمال والأحزان تغسله » ٠٠ أم الخير رفيقة الصبا ٠٠ كم لعبا سويا لعبة العريس والعروسة ٠٠ كم ذابت فى حضنه طفلة طرية شهية موردة الخدود متألقة الملامح مسمسمة ٠٠ كم بكى لأنها غضبت منه لم تستجب لندائه ساعة اللعب ٠٠ مساك الله بالخير يا أم الخير ماذا على بركات أن يفعله ٠ هل لو فعلت يا أم الخير تسمحين لى بالجلوس فوق كرسى خدك فانجعص ويحدونى الشوق فأستحم من بحرى عينيك الصافيين ؟ أطلبى يا أم الخير ٠ أطلبى ٠

سرب الحنان يخفت ٠٠ وتتكسر أجنحته فتهوى به الى الأرض ٠ ضحكات بلهاء تتساقط من شفتى بركات ، فتطن فى الأرض مكتومة الصدى ٠٠
ـ همتك يا بركات ٠
ـ هيا يا بركات ٠٠

المقطع الثالث :

تزحزح الجمع دافعا بركات نحو البئر ٠ موكب ضم أهل البلد ٠٠ بالطبول ٠٠ والشخاليل ٠٠ والزغاريد ٠ حملوه فوق رقابهم ٠ وهتافهم زلزل الأعماق من نفس الفتى :

ـ « بركات يا بركات . يا ابن البلد يا أمير . اغطس وقب وهات .. كردان أم الخير .. واستحضر البركات ولأهل فوق الأرض .. استلهم الدعوات .. يا ابن البلد يا همام » .

طرح الفتى عينيه فى زهو سعيد . لابد أن الأرض ترقص له . لابد أن هذا يوم عرسه . نعم لابد . انه بالفعل هكذا . لماذا لا ؟! ابشر يا ولد .. ان هذا العرس عرسـك . تبختر يا عريس فهذى ليلتك .. لا شـك انهم يزفونك الى عروسك الحبيبة .. الى .. الجنية .. ويقولون كردانا ؟ وأم الخير ؟ .. لا .. انهم قد أخطأوا .. لا لم يخطئوا .. أنا الذى لم أسمع جيدا .. ليس اسمها أم الخير .. اسمها الجنية .. ولسوف تعثر على الكردان يا بركات .. وفرحا سعيدا ترشقه فى صدر عروسك .. الجنية .. أليس هكذا يا أهل البلد ؟! ..

قالوا :

ـ ماذا يا فتى الفتيان ؟

قال :

ـ ألستم الآن تزفوننى .. الى الجنية ؟!

هتفوا جميعا وفى أعماقهم صدق حقيقى :

ـ نعم يا فتانا .. وان هذا اليوم أسعد يوم ..

قال بينما يهدهد نفسه فوق الرقاب .

ـ وأليس ذلك الكردان كردانها .

قالوا وقد غاب عن أذهانهم موضوع أم الخير :

ـ فليكن .. وكل ما تبغيه .. تعطيه للجنية ..

زعق الفتى زعقة هزت فروع الشجر · نادى وقال :

ـ يا جنيتى ·· قد جاءك العريس يا جنية ·· جاء تزفه كل البلد ، فرحانة بزفافنا · فلترقصى ولتسعدى ·· فها أنا قادم اليك يا جنية ·

ودب فى الأوصال لهب ساخن · ودوى فى الفضـاء قرع الطبول · ولحق بالموكب موكب آخر · تفتقت الأرض عن أفواج لا حصر لها من البشر ·· تحمل المشـاعل ، والمزامير والدفوف والشخاليل ، والبيارق ·· وتهز أركان الفضاء · تطايرت فى الجو آلاف الزغاريد ، كالعصـافير الطليقة ، ترفرف وتحط على رأس الفتى بركات ··

وعند البئر أنزلوه ·· و ·· تركوه ·· يتقدم وحده ·· ثم تراجعوا ·· تماما ، كما يتركون العريس يدخـل مخدع عروسـه انخرس كل شىء ·· كان الوجود شملته لحظة صمت خرافية ·· لم يقطعه سوى انشقاق الماء ·· ثم انطباقه ·· ثم ما لبث طنينه أن ذاب فى الأفق البعيد ·· كما ذاب الفتى بركات فى عمق بعيد · الأنفاس كأنها تعلقت بصفحة الماء · الآذان أرهفت · الأحاسيس تيقظت · الكل لاهث الأنفاس فى انتظار صرخة كصرخة العروس ، لحظة تخدش بكارتها · لكن لحظة طويلة مرت ، كأنها دهر طويل ثقيل غير أن اللحظة طالت وطالت ·· واسـتحال الواقفون الى تماثيل ·· كأنهم نتوءات بارزة على سطح الأرض ، كل ما فيها عيون تبرق وترسل الى صفحة الماء نظرات شاحبة · على أنهم ما لبثوا أن استبانوا خلال الماء كتلة غامقة تطفو على سـطحها شيئا فشيئا ·· ما لبثت أن تجسمت ·· أنها ·· بركات ·· كتلة لحم ذات رأس متهدل ·· تقيأت على صفحة الماء دما قانيـا مشوبا بزرقة ·· ثم عادت تهبط من جـديد ، الى أن غابت فى الأعماق البعيدة ·

وبعد جهد جهيد . استطاعت النتوءات البارزة على سطح الأرض أن تتحرك ، بما يسمح لها ـ بصعوبة شديدة ـ أن تلوى الشفاه والأعناق ، وأن تلتقى النظرات بالنظرات ، وربما يكون قد مر دهر كبير ، استطاعوا بعده أن يقولوا بأسف وأسى :

ـ واحسرتاه .. لقد أفشى السر .. فخطفت روحه الجنية » !! ..

(أكتوبر ١٩٦٤)

عندما يورق المـوت

انقضى الليل . انسحبت ظلمته من بطن الكون .. وحطت في صحن الدار . والنسوة أشباح . بقع من طين أسود محفوف بالزرقة . كلمات تتساقط في لوعة .. تتناثر تتكاثر تتلوى في ذعر ..وتصوت في سمع الصبح :

ـ يا راحلة عن دارنا لم ترحلين ؟ أفتتركينا هكذا في محنة ؟ الدار بعدك خاوية .. والشمس خنقت نفسهـا في جوفنـا . يا راحلة .. لم ترحلين ؟! عودى الى الدار الحزينة وابعثى فيها الأمل .. فلربما تخضر منك قلوبنا .

.. اليوم ترحل جدتى .. وبالأمس رحلت أمى المسكينة : لم ترحلين يا أم عنى هـــكذا .. ؟! لم لم تحملينى فى ضـــلوعك يومهـا .. ؟ لم تتركينى بينهم .. ؟ كم كنت أهوى أن أكون بجانبك . كم كنت أعشق صدرك الملان .. كم كنت أعشـــقه . رضعت من حلماته رحيق الحب والدنيـــا . دفنت في أعمـــاقه روحى ، وأفراحى ، وهمى ، وأحلامى وأيامى وندمى . يا لهذا الصدر من جبلين . من هرمين يحتضنان جدولا رقراقا بنور زاهر عاطر يا طالما دسست أنفى وشفتى بين دفتى ذلك الجدول .. فتهت عن الوجود عديدا من الدهور .. لم أكن أشعر خلالها الا بهدهدات كفك العريضة الحنونة وهي تطبطب على فى سرعة محمومة بسخونة الحب .. وتضغطين وكأن أحشاءك لن تستريح الا بعد أن تحتوينى

بداخلها من جديد • ولعلك لم تكوني في تلك اللحظة يا أمي الحبيبة لتدركي أنني لم أكن لأشعر بأني خارج الأحشاء منك • ؟ لعلك لم يدر بخلدك أنني ما كنت لأحس بضجيج الحياة • الا بعد أن أنسلخ من صدرك لفترة ما لسبب من الأسباب • وما كان أكثرها وأشقاها من أسباب • فلطالما نزعتني عن صدرك بعنف جبار وقسوة ووحشة وكأني بها كانت تغرر بي • اذ تنزعني عن صدرك شيئا فشيئا • لتحول بيني وبينه في النهاية الى الأبد وفي ذات الوقت تستقيني مرارة اللوعة • ولهيب الحسرة والشوق والحرمان على مهل • وها هي الحسرة تستقر الآن في قاع بطني آه ياللهب الفظيع يرتفع أواره الآن في أعماقي •• آه •• ه •• يا أمي •• آ •• ه •• يا أمي •

أنا رحت بلاد الغربة يا أمي كيما أصنع من نفسي شيئا •• كيما أشعل مصباحا يهديني لمصيري •• كيما أرتاح وأرجع للصدر المفتوح •• كيما أتسلق قمته المرتفعة ـ وفي قدمي سلاسل من أوجاع وموانع ترسخ بي وترشقني ، لا تزرعني بل ترشقني في مكاني وفي القدمين العاجزتين بريق حلو يتصاعد دوما كالنظرة تهفو تتطلع لشموخ الأبدية ، ترنو لصعود مزدهر بالخضرة ، تحملني النظرة وتطير وتحط على صدرك يا أمي تنصب وتقيم على صدرك عرسي تجلسني في زهو فوق الجبلين •• مرفوع الهامة والعينين أشقى للأرض رحيقك يا أمي كيما نقطف زهرتها •

رحت بلاد الغربة يا أمي نهشتني الغربان ، اقتطفت روحي ، وحماسي •• قتلتني فرجعت اليك ولم أصنع من نفسي شيئا • عدت الى صدرك مشتاقا ملهوفا كغريق يهفو لشراع أبيض فلعلي ألقي فوق الجبلين حياتي • لكني يا حسرة •• لم أجد الصدر المفتوح أين مكاني فوقه ؟ هل ضاق الصدر بأحزاني ؟ فعلا •• قد ضاق

الصدر بأحزاني امتلأ بأحزانك يا أمي . قد مات أبي من فرط الحب .. ضحك فمات هل راح الجنة ؟ .

كنت تقولين وفي عينيك لهيب : ذهب الى الجنة حيث تذكره الله تعالى والآن من هذا القادم نحو الدار ؟ من هذا الزائر يتفضل ويؤانسنا ليل نهار ؟ من هذا الغازى قلبك يا أمي ؟ من ؟ من هذا الدائب في ترديد الكلمات الطنانة ؟ من هذا القائل أن الشمس ستشرق خضراء وتظلل سعف النخيل ؟ من هذا الواثب في الأحلام ؟ الواعد بالأحلام .. ! الشارب من غثيات الدنيا أحقر ما في الكأس . أني أكرهه ، أمقته ، أمقت ظله ، أمقت صوته .. أمقت كل الدنيا اذ تهتف باسمه .

قلت لجدتي المسكينة :

ـ من هذا الضيف .. ؟

ـ قالت جدتي الطيبة :

ـ هو صاحب بيت . قد أصبح صاحب بيت منذ الآن !

قلت : ـ

ـ وكيف ؟

قالت : والدمع يبلل نبرات الصوت :

ـ الدار حزينة يا طفلي .. تحتاج لفرع يورق ويظلل هامتها ويظللنا .. ويدوس الأرض بقدم خضراء ..

قلت : ـ

ـ الدار مليئة بالجدعان فما بالك يا جدتى الطيبة المسكينة ، تأتينا برجل لا يعرفنا ولا نعرفه ٠٠ يا للعار ٠٠ تأتين لأمى بالعاشق الشارب أحقر شهوات الانسان ؟

انخرس الصوت على شفتيها فانخرس على شفتى ٠ قالت بعد هنيهة ٠٠ :

ـ يا ابنى لا تكثر إسئلتك ٠٠

قلت : ـ

ـ أجيبينى ٠٠ لن أهدأ حتى تعطينى جوابا ٠

قالت :

ـ يا بنى لست المسئولة ٠٠ اسأل أمك ٠

وسألتك يا أمى ٠٠ فالتمعت فى عينيك مهانة ٠٠ وغضضت البصر ولم تعطيلى أى جـواب ما هذا السر الغامض ؟ ما هـــذا يا أمى ؟ ومن هذا ؟ ٠

انطلقت عبراتك يا أمى ٠ وأخذتينى فى حضنك ٠٠ وحكاية هذا الغول تلف الليل على شفتيك :

ـ قد خطفك يا أمى ٠٠ جذبك من شعرك ٠٠ ليريك القصر المسحور ، والجنة ذات الأعمدة الخضراء وذات فروع سكرى بكئوس الطمى ونفوس تسطع داخلها شمس ذهبية ـ ست الحسن هناك مازالت تنتظر ـ حسن ـ ليجىء يخلصها من فك الغول ـ كانت أمنيتى أن أذهب لأخلصها ٠ لكن يا أمى أدركت بأنى لازلت صغيرا ،

فالغول القابع فى حضنك غول جبار ·· آ ·· ه يا أمى ·· من يشرب من لبنك ويخلصك · آ ·· ه لو انى وضعتك ما يكفينى · لو انى ظللت أشم عبيرك من صغرى ·· لكن يا حسرة ·· لم نرضع غير الحرمان ·

يا غول يا ساجن ست الحسن ، رحماك بست الحسن فهذا غول آخر يسجن أمى ·· أمى ماتت فى يديه ·· ماتت ·· ودفناها · ورجعنا نتجسس فى جوف الدار ونبحث عن شىء نحييه · ليس هناك سوى جدتنا ·· والغول يعود ويتمدد فى جوف الدار ·· يلقى باللوم علينا :

ـ أنتم يا أبناء الدار أهملتم فى شأن الأم · أنتم يا أبناء الأب المارق أغفلتـــم رى الأرض وأضعتم ريع الأرض ·· فدعوها ·· ودعونى أتصرف فيها حتى أحييها ·· !

بالله عليك ها نحن تركنـــاك فماذا فعلت ؟ هل تتكلم ؟ من جعل الأرض حريقا ؟ من سحب الخضرة من سعف النخيل ؟ من أغلق باب الدار على الغربان ·· ؟ هذى غربانك مازالت تنعق فى جوف الدار · ها هى بوماتك تمتص هواء الدنيا ·· تحرسها شياطينك ، تحميهـــا وتنميها · من ذاك الفاعل هذا ؟ من ؟ هل تتكلم ؟! كان الأجدر أن تقتل نفسك ، أو تتوارى ـ مادمت حريصـــا أن تحيا فى مجتمع الغربان ، مادمت توارى سواتك الواضحة وضوح الخجل على خد العذراء ست الحسن · هل تتكلم ؟ وتقول بأننا أهملنا·· ؟ أهملنا ماذا ؟! أهملناك ؟ أم أهملنا الحق الضائع بين يديك ·· أم أهملنا الشمس المنطفئة ، المحتجبة خلف ذراعيك ؟ أم أهملنا أمى وتركناها تتلظى تحت لواءك ، تتلوى · وتزم الشفتين لتكظم غيظ ســنين الحسرة فى نبرك · كانت يا حسرة تخشى كلمات الناس ·· وتتحاشى

أى فضيحة ·· كانت فى قفصك صارخة الصمت ·· طرحتهـــا السوداء تندب حظ هواها الأعمى · كانت فاقدة الحول ·· لا تدرى ماذا تفعل والغربان تبدد ثمر النخيل وتبددنا ·

هل تقصـــد ـ يا غولا هبط على مأمنـــا وانقض على أمى أننـــا أهملنا فى هذا كله ؟ أم ماذا تقصد ·· ؟! لا تلق الذنب علينا ·· لا تطمس فى الأذهان خطيئتك الكبرى : ماتت أمى ـ احترقت فى صهد الأرض العطشانة ، آكلتها الغربان ، نهشت جثتها الغربان · هل تنكر هذا ؟ هل تنكره ؟ أم أنك لا تذكر هذه الأشياء ؟ ·

أفلا تذكرنى طفلا مذعورا يتخبط فى صرخات الليل وتتقاذفه عديد من نسوة والجد تمسك جلبـــابى وتحيط بألبابى · وتحاول جاهدة أن تحجب عنى الرؤية وأنا أنثال دموعا حارقة · صامتة ·· لكن كهدير الماء يصب على المأتم · ويولد فى الجو شرارا يجتاح ضجيج الحزن الكاذب · ويغطى صرخات النسوة · ؟ أنسيت ·· ســـاعة هبطت كل النسوة وركعن أمامك يرجونك ، دعه يراها · أنسيت الصورة ؟ صورتك الملعونة لخطتهـــا · حين ضربت الأرض بقـــدم مخبولة · وأمرت بوضعى فى القاعة والاغلاق على ·· حتى ندفنها ؟!

ودفنتم اياها رغما عنى ·· ذهبت أمى · تركتنى أجتر أساى وحكاية ست الحسن والغول السجان · قولى يا جدتى الطيبة :

ماذا فعلت سن الحسن ؟ تتثاءب جدتنا ··· وتملس بالكلمات على عينى :

ـ ست الحسن هنـــاك مازالت فى القصر المسحور · القبر المهجور ·· تنتظر الشاطر ليخلصها من فك الغول · قالـــت هذا بالأمس · واليوم تذكرها الله ·· فماتت · قالته وماتت ·· آ ·· ه ·

كان حديثك يا جدتنى المسكينة ·· سحرا يطربنى فى النوم ويجعلنى أتقابل مع ست الحسن وبنت السلطان ·· أطرح بينهما أملى مرهونا بفؤادى ·

ـ من تنجح فى توصيلى للجلة ·· تأخذ قلبى وحياتى ، ونعيش سويا فى رغد ، اذ أنى سأقابل أمى فى الجنـــة · وسأجد هنـاك على الجبلين على الهرمين مكانا يأوينا ·· يا ست الحسن ·· ويعطينا عشا نبنيه ·

شدتنى بنت السلطان ·· جرتنى من ثوبى الريفى الواسع · وأرتنى قصورا وعبيدا ، ورجالا ليسوا كرجال البلدة ، ليسوا من طين بل من حلوى وأرتنى أرضا ليست من أرض البلدة ليست من خضرة بل من حجر ورخام وأرتنى زحمـــة لم أعرف فيها مخلوقا أيا كان ·:· وأرتنى وأرتنى حتى صرخت من الغربة وطلبت الجنة ·· وطلبت السير اليها ممتطيا قدمى ـ ان عز على الركب · وعرضت حياتى ثمنا لهواها لو ألقاها ·

ضحكت بنت السلطان ، وقالت ـ يا مخبول ، يا متأخـــر ، تلك هى الجنة ·· فامرح فيها كيف تشاء · اشرب ، كل ، البس ، أرقص ، غن ، مر ، انه ، افعـــل ما يحلو لك ، فالدنيـا ملكك · فاما وسعتك الدنيا ، فانظر فى عينى ، لتطل على دنيا أخرى ·· أدخلها وارفع فيها واستسلم ، ولسوف أغطيك بجفنى · أو أدخل فى حضنى ، وتمدد ، وتمرغ ، واقس على ، اسـحقنى لو شئت ، فتتنى ، اجعل ثقلك يهبط بى فى جوف الأرض ماذا تبغى ؟ قل ، فى النوتكون البغية بين يديك · لن أفعل أكثر من ضغطة أو حكة فص ، تنقلب الدنيا لحظتها وتجىء وتركع وتقبل قدميك · ماذا تبقى ؟ ماذا يا فلاح الشؤم ، يا ناشـفا يا عملاقا حافى القدمين ،

يا راضع لبن الأرض الأم ، وساقيها دم ذراعيك ٠٠ قل لى ، أتكون دماؤك قد خاوت رحم الأرض ٠٠ فلا يستسلم أحدهما الا للآخر ؟ ٠

جمعت حيائى ووفائى للعهد الغالى ونطقت أخيرا ، قلت :

ـ يا بنت السلطان ، يا أحلى ما أنتجته الجان ، اصنعى معروفا ودعينى ٠٠ مادام البر الثانى مازال بعيدا ، مادام هناك هناك على مرمى الأبعاد ٠ أعرف انى لن أرجع للبيت فلا توجد أمى فيه ٠٠ لكننى لابد وأن أتحرك فى جهة ما ، وما دمت تحركـــت فلابد وأن ألقاها ٠٠ ألقى أمى ، والجنة ، فالجنة مثواها ـ قال الشيخ يصلى عليها ، والجنة مأواها ـ قالت جدتى مؤكدة لى ٠

انشرح الجو ، فى وجهى طق شرار عينا بنت السلطان حمم ٠ أكأن المردة قد وجدت فى التو وأشاعت فى الجو لهيبا ٠ ياللأهوال المحدقة بأهل الأرض وبى ٠ لفتنى دوامة ، رفعتنى فى الجو ودارت بى وانخرطت فى الدوران ٠٠ قذفتنى فوق الأرض حطاما ٠

فتحول ظهر الأرض ، وانقلب ذراعا ممدودة تتلقف رأسى ٠ واذا بى مسنود الرأس ، يمتص وجودى دفء حلو يمزجنى بطراوة صدر لم أعهدها الا فى حضنك يا أمى ٠ اتفتحت عيناى ، ومن بينهما طار بريق حلو أحمر ، كبريق الصهد المتصـاعد من جوف الأرض العطشانة ٠ انطفأ الصهد بشعاع هبط على بصرى كشـــعاع الماء المتدفق من أعلى الجدول ٠ كانت نظراتك يا ست الحسن ٠٠ نظرات غسلتنى من كل هموم الدنيا ٠ فشربت الروح ٠٠ آه ٠٠ يا ست الحسن ٠٠ ما هذا الخد الشارب من طمى النيل ؟ ما هذى الخضرة فى عينيك ٠٠ رسينى يا ســـت الحسن ٠٠ رسينى على خدك ٠٠ ومرينى أن أطـوى شراعى ٠٠ وخذينى فى حضنك ٠٠ ضـــمينى اليك ٠٠ ضمى ٠٠ ضمى يا ست الحسن ٠٠ الجنة قدامى يا ست

الحسن ·· الجنــة فى قلبك ·· أعطينى المفتــاح ·· لا ·· قلبك يا ست الحسن لا يألف مفتاحا ما ·· وسأفتحه ·· أنفاسى ستذيب الأقفال ·· أولا ·· قلبك يا ســت الحسن غصن أخضر طاب على أمه ·· وسأقطف منه فروعا أزرعها فى كل قلوب الأرض ·

آه ؟ ماذا أسمع ؟ يقترب زئير ماذا ؟ الدنيا تهتز ·· تتهاوى الأشياء على سطح الأرض وتردد أوراق الأشجار نحيبا وهتافا ·· تتهامس فى ذعر ·· الغول يمر ··

ـ ما بالك يا ست الحسن ·· ما بالك واجفة القلب ؟ ارتعدت ست الحسن لطمت خديها قالت :

ـ يا ويلى ·· أين أداريك ·· أين ؟ لا مهرب منه ·· لا يخفى فى الدنيا مكان عن عينيه قلت :

ـ دعينى يا ست الحسن ، فلسوف أخلصك ·· الســاعة سوف أخلصك · سطع الحب على شفتيها ·· ربتت شــفتاها على صدرى · قالت فى لوعة ـ اهرب يا طفلى · أهرب خيرا لك قلت ـ وقد بدأت ترجفنى رعدة : أنا ياست الحسن شــجاع ، لا أخشى شيئا حتى المارد ·

بســم العطف على شــفتيها ، فى حين أخذت تتوارى عن بصرى ، وتشير بكفيها وتقول :

ـ لا تستسلم لشجاعتك الحمقاء ·· فى هذه الحالة يا طفل لا تعتبر شجاعا بــل مجنونا · اهرب وانــج بجلدك · فاهتزت بى الأرض ، وصرخت بفزع ومرارة :

ــ دليني يا ست الحسن ٠٠ اهديني لمكان الجنة ٠ رجع صداها قال بحسرة :

ــ الجنة والغول ؟ هل هذا معقول ؟ فلتهدأ ياطفلي ٠٠ فأنا في القبر المجهول انتظر خلاصي ٠ لكن في كل الأحوال ياطفلي لا تحزن ٠٠ فخلاصي ــ أيا كان ــ سيكون ربيعا ٠٠ ويخضر سعف النخل ٠ ارتفع زئير ٠٠ طقطق صوت كسر جنبات الكون ٠ قالوا في همس مذعـــور :

ــ الغول تثاءب ٠ ناديت بأعلى صوتي :

ــ ياست الحسن ٠٠ لا أعرف كيف أعود ، ولا كيف أمر ٠ قال الصوت يحذرني :

ــ جرد نفسك من أسلحتك وامضي بدلا من أن تنزع منك وتطرد من دنيا الأحياء ٠ وارم سلامك قبل كلامك ٠٠ وابعث لأمك ألف ســـلام ٠

***

ــ يا راحلة عن دارينا لم ترحلين ؟ يا أم أهل الدار يا أصل السبب ٠٠ يا من خدعت الأهل والأحبـاب بالنوم الطويل يا من نسيت قلوبهم وحنينهم وأنينهم ٠ ابعد عنها يا غول ٠٠ فالوليـــة قلبها مقتول ٠ وابعد عنها يا قاتل ٠٠ فالولية نعشها مائل ٠

٠٠ يا الهي ٠٠ لم يعد يوجـــد في هذه الدار من يهتم بي ٠ ليس في هذه الدار من يهتم بي ٠٠ فاهتـم بي أنت وتذكـرني ٠ تذكرني فلم يعد في الدار ســـوى الغربان ، واليـوم عشش في نوافذها ٠ بوابة الدار واســـعة ، لكنها يـا ألف حسرة مدهونة

بالصدأ ، ملطخة بالصديد ، ولا طاقة لمخلوق بشرى على فتحها ، انها لا تفتح الا لجنى ابن جنى • كل من فى الدار ميت ، وكل ما فى الدار ميت • واليوم وفى هذه اللحظة •• تتوقف روح الأشـــياء • جدعان العائلة يزفون الأرواح اليوم • جثة جدتى العجفاء يكفيها كفن ضيق •• لكن العائلة تكفنها بعريض الأثواب ، فالجثـــة ليست جثتها ، بل جثة أرواح الجدعان ، واليوم ستدفن فى القبر ، تحملها جثة جدتنا • جدتنا ستروح الجنـــة بالطبع لكن أرواح الجدعان ، ماذا تفعل ؟ انى لا أدرى هل يمكن أن تذهب أرواح الناس الى الجنة •• دون الأجساد •

ما بقى سوى أجساد •• حتى أنظر •• انظر يا الهى •• ماذا يمكن أن تفعل هذه الأجساد ها هى متكورة جنب الحائط تنتظـر صلاة العصر وتنتظر الأكفان • جدعان البيت حجر قطع من طين من طوب ، من طمى برك ، من زفت ، من قطران •• برؤوس مائلة فى ذلة ، كالاستسلام كحقارة كلب أجرب يتلقى الركل ويعوى ويجرر ساقيه ، ليرتمى على كومة قش ، أو ينقض على جيفة نتنة ، ينسى فيها ألم الركل ••

الجامع أذن لصلاة العصر فانتفض الجميع وقام •• والتفوا حول النعش • وأنا أتسلل ما بين الأرجـل : ــ لابــد وأن أذهب لأشيع جثتها ، لأشيع جثة أمى فى جثتها •

الواعظ ملس فوق النعش • وتغنى كلمات :

ــ كل الناس تذوق الموت • لكن •• ما كل الناس تذوق الجنـــة •

هيا يا جدتنـــا •• امض لمصيرك ومصـــيرك مجهول •• فى قلب مقابر قريتنا انتشر الجميع بطابور يبدأ من وسط القرية

انكفأ البعض على مقبرة الأم · انتفضت روح فتى وقف على مقربة منها أنشــل الفأس ولم تهو فوق الأرض · بعد الضــارب بالفأس قليلا · صرخ فتانا ·· صرخ صراخا شــل الموكب والمنتشرين ·· وانكفأ على الأرض يعانق شجرة · جذع أخضر ذو حزمة أفرع نبتت من أرض المدفن ·

قال البعض : ــ فى هذه البقعة ترقد رأس الأم · وقال الكل : ــ يا للحكمة ·· أرض رملية تنبت شجرة ؟ لكن فتانا يتمطى · يصبح فجأة كالمارد ·· كهرقل ·· يفرد صدرا يسع الكون ويسد طريق الطابور القادم بالموت · يبعث فيهم صوتا كهدير الرعد :

ــ فلتقبل يا موت · أنت حقيقى والباقى زيف · أنت حقيقة كل الحقائق · أنت خلاص وأنت أمل أنت فناء وأنت حياة · وأنت ذبول وأنت ازهار · اسمعوا ·· ياكل خلق الله يا أهل البــلد · لا تقربوا هذا المكان · لن تقربوه ·· ألا فلتسمعى يا من هناك فى قبرك المهجور قصرك المسحور ·· هذا خلاصك ·· ها هو الموت يورق فى قريتى ·· هاهى أمى تطرح شـــجرة وتفتح ثقبا على جنتى ·· يا أهل بلدتى ، يا كبار ويا صغار ، يا نساء ويا رجال ·· يا أجنة فى بطون الأمهات ، يا بذور الزرع فى أيدى الصبايا ·· من ها هنا يبدأ التاريخ رحلته الجديدة ويبدأ الانسان فى صنع الحياة ·· فلتدفنوا جدتى فى مكان ما ·· لا ·· بــل ذوبـــوها فى عروق الأرض ·· ودعوها تزدهر ·· ووالوها بالرعاية كل يــوم ، لكى تشربوا روح خلاصكم ·· أما أنا فانى سأبقى هنا ·· فهذا خلاصى ·· فان ذات يوم مررتم هنا ، ولم تجدونى فى مكمنى ·· فقولوا بأنى ذهبت هناك ·· الى جنتى ، وانى هناك ·· متربع على صدر أمى الحبيبة ·

(١٩٦٤)

أغنية للقمر الغائب



·· وانزاحت عائشة ، وتمطت ، رفعت قامتها ، نفضت عن هذا الرأس المكدود شريحة ليل ، ورمتها · والليلة يا صبايا ·· الليلة ·· هيه ·· الله كبير يا صبايا ، وغنى ، وأمير ، ويحب الناس ويكرمهم وخصوصـــا من هم فقراء ، ما أحلى حظ الفقراء ما أحلى آخرة المحتاج ·· سيلاقى فى الجنة أشياء لم يرها فى حيـاته ، وسيأكل يلبس يغسل يتطهر من كل الأوساخ ، وينام ، و ·· و ·· العانس فى هذه الدنيا الخربة يا صبايا · فى الجنة تتلاقى بعريس عملاق ، وملاك ، سيحضنها ، ويقبلها ، ويتوها فى صدر رحب مترام الأطراف ــ والدنيا ··· لتغور بدنياها ودناياها ، لتغور فلا نطلبها ·.

وانبعث من القعدة صوت حالم ، صوت صبية ، جاءت ــ عبرت متسللة من سطح الجيران ، لتزور السطح العامر بالسمر ، قالت ·

ــ يا عائشة · ما قولك فى عز هبط على عمك فجأة ، ليدندشه ·· وليجعله رجلا من بين الأعيان ·· يمتلك الأرض يؤجرها وينال المال بغير حساب ، ويزوج بنينا وبنات من أبنائه ·· والفخر لمن يحظى بمصاهرته ؟ ·

انغلقت عائشة للحظة ، بعثت نظرتها شاردة فى الجو ، عانقت القمر الطالع ، النائم كحمامة ، فى أعلى نخيل متباعد : يا جريد

النخل يا عالى ، ارفق بالقمر المتخفى فى سعفك ، احضنه ولكن لا تخفيه ، أترى ، ها هو يتمرد فى صدرك ، ويحاول أن يفلت من بين ذراعيك ٠٠

ـ عائشة ٠٠ عائشة ٠٠ مالك ساكتة يا أخت ؟
قالت عائشة :

ـ الويل لعمى ٠٠ الويل الويل ٠٠ قد كان حريا يأخذنى ويعيشنى ضمن بناته ٠٠ أو لست صبية ؟ أو ليس له صبيان ؟ ـ لم يصبح فى الدنيا أمان ٠٠ عمى كثرت أراضيه ٠ عمى لا يزرع شيئا ٠٠ عمى لا يفعل شيئا الا أن يحصد ما زرع الناس ٠٠ قد كان فقيرا لا يجد القوت ٠ قد كان أبى ٠٠ وأبى ؟! ٠٠

***

٠٠ فى وســط الدار تمدد فوق حصــيرة ٠ يتقلب ، يعطى للحائط ظهره ، ويعود فيعطيها وجهه ، ويلم ضلوعا خاوية توشك تنفجر ٠ وبألم وحلاوة روح ، تتراقص أهداب مثقلة بسنين وسنين ، تبلغ ستين ، ينفخ ، يتمطع ، يعطى للحائط ظهره ، ويمــد ذراعا مغروقا ليعانق آخر من أسفل ، يحضن بينهما رأسه ، فلعل النوم يجىء ، والنوم عنيد ، وبخيل ، وحقير لاينبغى أن ينجد من هم فى مثل الخطة ، لا بل هو يمعن فى الكيد فيسوق عليهم أثقالا : الدنيا حكم ، أمثال ، وتقول الأقوال : لا حاجة فى الدنيا تدعى « شطارة » ، بل يوجد شىء يدعى الحظ ، ليتك تملك قيراطا منه ، أنفع من فدان « شطارة » ٠٠ آه ٠٠ حكمتك يارب ، لك شأن فى شأن الخلق ، انى ـ لا سمح الله ـ لا أعتب ٠٠ فأنا عبدك مهما كان ، وعلى كل هذا خطر على ، هكذا جاء ، بختى ، ماذا سنقول ؟ لكن يا خسارة ، لكأنك يا أخ « على » لست شقيقى ، لكأنك لم ترضع من ثدى أنا

راضـــع منه ، طول عمرك هذا » ، من يومك ، ولد غدار وأنانى ، حتى مع نفسك فى بعض الأحيان ــ تحضرنى الآن حكاية ، كانت قد عبرت أحلامى فى ليلة ، حيث تمددت جوارى ، فى النـــوم تغط وتتعمق ، واذا بى فى الحـلم أراك ، تمشى وتثرثر ، وتقول كلاما لايفهم ، عن دنيا قائمة فى رأسك ، فزجرتك ساعتها ، وأردتك أن تمشى ساكت ، فالجهد تبدد فى اليوم ، وتساقط عرقا ، قطرات ذابت فى الطين ــ كان غريبا ألا يصرفك الطين ــ مع أنك فى الشغل تناولنى قطرات منه ، أتلقفها ، وأغلف منها نبت الجدران ، لا نميها ، كيما يرتفع البنيان ــ وتجىء أخـيرا تفلقنى بحديث تافه ، مؤداه غرامك فى فرس تركبه وتلف القرية تتمخطر ، وتباهى بشبابك اخواتك ، وتثير عقول الفتيات ؟ ٠٠ كنت حريا أن أزجرك ٠ لحظتها اجتزنا الحارة ، ومررنا على بيت « استيفا نوس » ، هو أعلى بيت فى القرية ، اذ يبلغ سبعة أدوار ، سكان القرية ترهبه ، فهو خراب من أعوام ، منذ اغتالت صاحبه الخمر ، وهوى فى عز شـــبابه ، أبقت أسرته ذكراه الحسـنة ، ببقاء البيت بلا ســكنى ، مع أن التفتيش العالى قد أحضر آخر ليحل مكانه وليرعى محصول الضيعة لكن فى بيت آخر ٠٠ ورأيتك فجـأة يا شـــيطان تتسلق جدران البيت ، كالقطة تقفز بمهارة فقذفت وراءك ابصارى ــ وأنا ذاهل ، وهناك هنـــاك على بعد المرأى ، لمحتك عيونى كالقطة ، كالرمز ــ الشاهد ٠٠ ما أفكه تلك اللحظة ، اذ رحت أحاول تقليدك ، فأخذت أشمر أطرافى ، وأمد يداى وقدماى وأســـنانى ، أتشبث فى شىء يشدنى بحديد الشـــباك ، بنتوء بارز ، لكنى يا حسرة سقطت ، وأصابتنى الضحكات ، يبعثها الرائح والغادى سخرية منى ، فى حين كانت توخزنى الأهات ، لا بـل كانت صرخات ، بدليـل أنك ليلتها قمت بفزع وشرعت تصحينى ٠٠ من تلك الليلة يا ملعون آمنت بأنك لابد ستعلو ٠٠ كم كنت أنا ٠٠ كم كنت غبيا وحقيرا ، وجحودا ٠٠ ما أغبانى ، ما أعمانى ، سوأت معاملتى لك ، ورميت

بقفازى فى وجهك ، صرحت بأنك ترهقنى ، اذ قل الشـــغل ولم يصبح مثل الأول . وتجىء الأيام بصبح يأخذك فلا ترجع أبدا ..
فسألت الأفكار ، وبعثت الذهن وراءك ، لكنك عدت أخيرا ، وكأنك آت كى تشمت فى .. لا أكتم أنى متحسر ، وحزين ، متأسف ، لكنك لم تفعل شيئا ، لم تلق البال الى ، بل سرت وخلفك أثوابك وثراؤك .. فى رأس مازالت صورتك تؤرقنى : الوجه المملوء دما ، عكس زمان ، والثوب الكشمير الغالى ، وصديرى ، والساعة من ذهب خالص ، وحذاء لامع ، والأدهى من هذا وذاك طربوش عايق .. أصبحت أفنديا ؟ والله عال .. أتقول سلام ، وتمر ، لا تجلس حتى لو بضع دقائق ؟ .. هل تنتقم لماضيك ؟ .. أم انك مشغول عنى ؟ .. فعلا .. الدنيا شغلتك ، أعطتك ، رفعت من قدرك ، أنستك أخاك جعلتك تروح وتنسى أياما كانت تأتينا فى زى ليال مثل نساء عجفاوات سوداوات منكوشات الشعر .. بالطول بالعرض قطعناها .. هل هذا سهل النسيان ؟ .. طب اجلس برهه .. قل سلامات .. ازاى الصحة .. كيف الأحوال .. افعل شيئا ، أو لست أخاك مربيك معلمك الأشياء ؟ .. هيه .. يا للأزمان .. ما عاد الأخ يحب أخاه .. دنيـــا أموال ومصالح ومنافع هل هذا يرضيك يارب ؟ .. أستغفرك وأتوب اليك ، اذ أنت ولا شك عظيم وخطير لا تفعل شيئا الا لمراد .. طيب .. الآن لدى سؤال : هل هذا الولد العاق يستأهل عزا يغرقه ويفيض عليه ، وأظل أنا مكدود الحال ؟ .. آه .. الآن تذكرت .. الواعظ قال : من كان فقيرا فى الدنيا عوضه الله بآخرته .. يعنى أنك تعطى لعلى دنيا كيما تنزع آخرته .. وعلى كل الأحوال فأنا أوشكت على لقياك ، فارزق عائشة يارب ، بعريس ابن حلال ، هى طبعا بنت مسكينة ، لم يتهاد لمحطتها أى قطار .

وتثاءب « عبد الفتاح » ، وتكور مرتكنا للحائط ، ويداه تلفان سيجارة ، والنوم خرافة ..

كانت « عائشــة » تغنى أغنيــة للقمــر المتخفى فى ســعف النخل ..

ـ انزلى يا بنت .. الفجر خلاص ..

ـ نم يا أبى .. ماذا صحاك ؟ ..

ـ اللغو بلا جدوى فوق الأسطح ..

ـ لكن اللغو ، تصاعد ، واحتجب القمر وغاب ، وانثال عليه سحاب فوق سحاب .

(١٩٦٤)

الفهـــرس

رقم الايداع بدار الكتب ١٣٧٥٦/٢٠٠١

ISBN — 977 — 01 — 7763 — 7



بين الحلم والواقع كانت مسافة زمنية ربما بدت لي طويلة أو مختلفة ولكن الأهم أن الحلم أصبح واقعًا ملموسًا حيًا يتأثر ويؤثر، وهكذا كانت مكتبة الأسرة تجربة مصرية صميمة بالجهد والمتابعة والتطوير، خرجت عن حدود المحلية وأصبحت باعتراف منظمة اليونسكو تجربة مصرية متفردة تستحق أن تنتشر في كل دول العالم النامي وأسعدني انتشار التجربة ومحاولة تعميمها في دول أخرى، كما أسعدني كل السعادة احتضان الأسرة المصرية واحتفائها وانتظارها وتلهفها على إصدارات مكتبة الأسرة طوال الأعوام السابقة.

ولقد أصبح هذا المشروع كيانًا ثقافيًا له مضمونه وشكله وهدفه النبيل، ورغم اهتماماتي الوطنية المتنوعة في مجالات كثيرة أخرى إلا أنني أعتبر مهرجان القراءة للجميع ومكتبة الأسرة هي الابن البكر، ونجاح هذا المشروع كان سببًا قويًا لمزيد من المشروعات الأخرى.

ومازالت قافلة التنوير تواصل إشعاعها بالمعرفة الإنسانية، تعيد الروح للكتاب مصدرًا أساسيًا وخالدًا للثقافة، وتوالي مكتبة الأسرة إصداراتها للعام الثامن على التوالي، تضيف دائمًا من جواهر الإبداع الفكري والعلمي والأدبي وتترسخ على مدى الأيام والسنوات زادًا ثقافيًا لأهلي وعشيرتي ومواطني أهل مصر المحروسة مصر الحضارة والثقافة والتاريخ.

سوزان مبارك



١٥٠ قرش

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب